الفصل الأول

محمد مهدي السنوسي

المبحث الأول

اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه

أولاً: اسمه وولادته وشيوخه:

هو محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي. ولد في الجبل الأخضر في ليبيا في محل يُقال له «ماسة»، يقع بجانب زواية البيضاء، في شهر ذي القعدة عام 1260هـ، الموافق نوفمبر 1844م[1].

ويذكر أحمد الشريف في تاريخه: «أن ابن السنوسي كان في درنة عند ولادة ابنه المهدي، فكتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن الاسم، فلما قدم المبشر عليه حكى لهم حكاية قال: كان رجل يخرز طبلاً فمر به جماعة وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته. ثم قال لحميه أحمد بن فرج الله: هذا المولود الذي ازداد على ابنتك يقف موقفاً يجري فيه الدم مجرى الماء في الوادي. وكتب لعمران بتسميته محمد المهدي وقال: أسميناه المهدي ليحوز إن شاء الله أنواع الهداية، ونرجو الله أن يجعله مهدياً»[2] لقد كان مجيء الولد لابن السنوسي بعدما تقدمت به السن، وكان الإخوان السنوسيون يتمنون من الله أن يرزق شيخهم مولوداً مباركاً، ولذلك كانت فرحة الإخوان وابن السنوسي بهذا المولود عظيمة، وسارع عمران بن بركة لزف البشرى لوالده، لإدخال السرور على قلبه، وبعد مدة أرسل ابن السنوسي إلى زوجته بالقدوم إلى درنة، وسلم ابنه للمرضعة، وكان سرور ابن السنوسي عظيماً، وكان

---

(1) الحركة السنوسية، ص169.

(2) السنوسي الكبير، ص34.

obeikandl.com

يرى أن ابنه المهدي سيخلفه بالدعوة ويكمل ما بدأه هو من أعمال، ومكث ابن السنوسي في درنة بجانب أهله إلى أن ولد ابنه الثاني سنة 1262هـ/ 1846م، وعندما كتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن اسم الوليد الثاني رد له الجواب بتسميته الشريف قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي ﷺ وإنما يختلفون في الألقاب والكنى، فكما سميت الأول محمد المهدي ليحوز أنواع الهداية، فسمِّ هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف، ثم شرّق للحجاز»[1].

وأسند أمر تربية أولاده للإخوان، وكان المسؤول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة وكان يتابع أخبار ولديه في برقة، وعندما أتم المهدي الخامسة من عمره أرسل ابن السنوسي للإخوان الكافلين له قائلاً: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة ففعلوا كما أمر[2].

وبعد أن أتم السنة السادسة من عمره أدخله المدرسة القرآنية تحت إشراف العلامة عمر بن بركة الفيتوري، وفي منتصف السنة السابعة من عمره، حفظ جميع القرآن الكريم.

وكان علماء الحركة السنوسية يعلمون أولادهم كتاب الله، ويشجعونهم على حفظه مقتدين في فعلهم بفعل الصحابة مع أولادهم، وبأقوال العلماء في هذا الباب:

قال السيوطي: «تعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام فينشئون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال»[3].

وأكد ابن خلدون هذا المفهوم بقوله: «تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب آيات القرآن ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات»[4].

وبعد أن سمع والده بحفظ ابنه القرآن الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز، وصحبه العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر، وفي سنة 1274هـ رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب وأشرف على تعليمه والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

وكان ابن السنوسي يتابع بعناية فائقة أقوال وأفعال ابنه، ويوجهه للصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة، وكان محمد المهدي منذ طفولته يتميز بالذكاء، وحسن الخلق، والتربية

(1) أحمد الشريف المخطوط، ص34.
(2) الحركة السنوسية، ص170.
(3) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور، ص104.
(4) انظر: منهج التربية النبوية للطفل، ص105.

الرفيعة، ومن القصص التي تدل على صفاته الحميدة: جيء للسيد المهدي في إحدى المناسبات بجواد مسروج ليركبه، وكان محمد المهدي لا يزال صغيراً بحيث إنه لا يستطيع وضع رجله بدون واسطة في ركاب السرج، وتقدم أحد الإخوان مطأطئاً ليصعد المهدي على كتفه حتى تصل رجله إلى الركاب، وكان ابن السنوسي يلاحظ هذه الحركات وينظر إليها باهتمام من طرف خفي، ورفض المهدي أن تطأ رجله كتفي الشخص الذي تقدم لمعاونته رفضاً باتاً، وأخذ يقود جواده إلى أن اقترب من حجر عال مثبت بالأرض فعلاه وبذلك تمكّن من أن تصل رجله إلى ركاب السرج فنال هذا إعجاب واستحسان والده والإخوان الحاضرين[1].

«وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه فكانوا يبدون إعجابهم»[2].

وفي السنتين الأخيرتين من حياة ابن السنوسي اهتم بتوطيد مركز ابنه المهدي بين الإخوان، وألقى الأضواء عليه، وعمل على رفع شأنه.

نقل عن الشيخ عمر الفضيل - رحمه الله - قوله: جاء السيد المهدي بـ «لوحة» إلى والده ابن السنوسي يريد أن يبدأ له فيه «بالافتتاح» فلما فرغ من كتابته قال له: اشهد لنا بأننا خدمناك»[3].

وكان ابن السنوسي يقف احتراماً عندما يستأذنه للخروج، وأنه أصلح له حذاءه مرة وقال للإخوان: اشهدوا أنني خدمت المهدي، فخجل ابنه وتبللت ملابسه بالعرق واحمر وجهه حياء حتى قيل: إنه أصيب بنوع من الحمى[4].

وقال في إحدى المناسبات: «المهدي له السيف، والشريف له الكتاب، ثم ألبسه السيف وقال له: تقدم لتصلي بنا»[5].

وحرص ابن السنوسي أن يزوج ابنه المهدي في حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنة عمران بن بركة وذلك عام 1275هـ/ 1858م، وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد وتوفيت في حياته سنة 1891م[6].

ثانياً: مبايعته:

عندما توفي ابن السنوسي في صفر عام 1276هـ كانت سن محمد المهدي حوالي ستة عشر

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص135.
(2) الحركة السنوسية، ص172.
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص136.
(4) المصدر السابق نفسه، ص136.
(5) الحركة السنوسية، ص171.
(6) المصدر السابق، ص173.

سنة، ومع هذا فقد خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعته، وكان على رأسهم عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي بن عبد المولى، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن حسن البسكري، وعبد المتعال الإدريسي، وأحمد أبو القاسم التواتي، أبو القاسم العيساوي، وعمر الأشهب، محمد بن الشفيع، مصطفى المحجوب، عبد الرحيم المحبوب، عمر الفضيل، محمد السكوري، أحمد أبو سيف، محمد بن الصادق الطائفي، أبو سيف مقرب، ومحمد بن إبراهيم الغماري، عبد الله السني، المرتضي فركاش، حسين الغرياني، فالح الظاهري، فقدموا لمحمد المهدي وشقيقه محمد الشريف واجب التعزية، وبايعوا الإمام المهدي قاطعين على أنفسهم عهد الله وميثاقه أن لا يتهاونوا بواجب الأمانة التي تركها شيخهم الجليل لهم، وأنهم مستعدون لتقديم الأنفس والأرواح في سبيل دعوتهم ودينهم، وكانت تلك البيعة قبل دفن ابن السنوسي[1] - رحمه الله تعالى - وقد بين عمران بن بركة في خطبة تأبين ابن السنوسي هذه البيعة في قوله: «. . . وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر ووارثه الماهر سيدي ومولاي السيد محمد المهدي. . .»[2].

ثالثاً: المجلس الأعلى للحركة وسير الحركة:

كون الإمام المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من: العلامة عمران ابن بركة، وأحمد الريفي، علي عبد المولى، وفالح الظاهري، عبد الرحيم المحبوب، محمد المدني التلمساني، محمد بن الحسن البسكري، وسيف مقرب[3]، وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز والسودان وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة، وكان يرأسه محمد الشريف السنوسي، ثم تعرض قراراته على الإمام المهدي، للموافقة عليها، أو تعديلها بما يبدو له، أو رفضها، أما المجلس الخاص فيتكون من كبار الإخوان المقيمين في الجغبوب، فيعقد جلساته يومياً بالجغبوب، وللكثير من أعضائه أعمال أخرى مضافة إلى عضوية المجلس وهو يشكل قيادة للحركة، وقد وصف الطيب الأشهب هذا المجلس بمثابة مجلس الوزراء، فالسيد أحمد الريفي بمثابة رئيس للوزراء، وهو المستشار الخاص للإمام محمد المهدي، وعمران بن بركة رئيس مجلس الشيوخ، وعلي بن عبد المولى حاكم الجغبوب بمثابة وزير داخلية ومالية في وقت واحد إلى جانب نظارة الخاصة الإمامية، ومحمد المدني بمثابة وزير الشؤون الاجتماعية، ومحمد الشريف بمثابة وزير المعارف، إلى جانب نيابته عن الإمام

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص30.
(2) الحركة السنوسية، ص173.
(3) انظر: المهدي السنوسي، ص35.

المهدي، ورؤساء الزوايا كحكام للمناطق، وبمثابة نواب الأمة عندما يجمعهم المجلس الأعلى، وهناك مسؤوليات أخرى وزعت على من ذكرنا وغيرهم، كالإشراف على طلبة القرآن، وطلبة العلم، ومراقبة المعلمين في المدرستين القرآنية والعلمية، والإشراف على العمال، وعلى دار الضيافة، ولاستقبال الزوار، ومراقبة المكتبة الجغبوبية ونظام توزيع الأرزاق «التموين»، واستلام الوارد وحفظه، إلى جانب هذا النظام المحكم، هناك مجالس فرعية في كل إقليم من الأقاليم تضم رؤساء المراكز الإصلاحية في ذلك الإقليم، للنظر فيم يتعلق باختصاصهم، والشؤون المرتبطة بهم، فعلى هذا التخطيط كانت تُدار شؤون الحركة[1].

ومن الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة، وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

واهتم الإمام المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي والزراعي وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب، كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التي يحتاجها الأهالي كالحدادة والنجارة... إلخ.

واستصلحت مساحات من الأراضي وصارت تنتج الخضار والتمور، وارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة في الصحراء، فكانت القوافل تمر منها في رحلاتها بين الساحل الإفريقي والصحراء، وبين مصر والمغرب، كما كانت قبلة وفود القبائل التي تدين بالولاء للسنوسية، وانتظم سير العمل في الزوايا بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين، فالرسائل مستمرة بين المهدي ورؤساء الزوايا تنقلها القوافل في طريقها، أو ينقلها في بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال، وتضمنت الرسائل تعاليم الحركة للزوايا وتقارير رؤساء الزوايا للمركز، بالإضافة إلى أخبار الحركة والإخوان[2] وكانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد في الحركة السنوسية في عهد الإمام المهدي ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب وكان ترتيبه على الوجه الآتي:

- بريد خاص بزوايا طرابلس.

---

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص35.

(2) الحركة السنوسية، ص180.

سنة، ومع هذا فقد خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعته، وكان على رأسهم عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي بن عبد المولى، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن حسن البسكري، وعبد المتعال الإدريسي، وأحمد أبو القاسم التواتي، أبو القاسم العيساوي، وعمر الأشهب، محمد بن الشفيع، مصطفى المحجوب، عبد الرحيم المحبوب، عمر الفضيل، محمد السكوري، أحمد أبو سيف، محمد بن الصادق الطائفي، أبو سيف مقرب، ومحمد بن إبراهيم الغماري، عبد الله السني، المرتضي فركاش، حسين الغرياني، فالح الظاهري، فقدموا لمحمد المهدي وشقيقه محمد الشريف واجب التعزية، وبايعوا الإمام المهدي قاطعين على أنفسهم عهد الله وميثاقه أن لا يتهاونوا بواجب الأمانة التي تركها شيخهم الجليل لهم، وأنهم مستعدون لتقديم الأنفس والأرواح في سبيل دعوتهم ودينهم، وكانت تلك البيعة قبل دفن ابن السنوسي[1] - رحمه الله تعالى - وقد بين عمران بن بركة في خطبة تأبين ابن السنوسي هذه البيعة في قوله: «... وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر وفرعه الزاهر ووارثه الماهر سيدي ومولاي السيد محمد المهدي...»[2].

ثالثاً: المجلس الأعلى للحركة وسير الحركة:

كون الإمام المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من: العلامة عمران ابن بركة، وأحمد الريفي، علي عبد المولى، وفالح الظاهري، عبد الرحيم المحبوب، محمد المدني التلمساني، محمد بن الحسن البسكري، وسيف مقرب[3]، وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز والسودان وشمال إفريقيا، وكان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة، وكان يرأسه محمد الشريف السنوسي، ثم تعرض قراراته على الإمام المهدي، للموافقة عليها، أو تعديلها بما يبدو له، أو رفضها، أما المجلس الخاص فيتكون من كبار الإخوان المقيمين في الجغبوب، فيعقد جلساته يومياً بالجغبوب، وللكثير من أعضائه أعمال أخرى مضافة إلى عضوية المجلس وهو يشكل قيادة للحركة، وقد وصف الطيب الأشهب هذا المجلس بمثابة مجلس الوزراء، فالسيد أحمد الريفي بمثابة رئيس للوزراء، وهو المستشار الخاص للإمام محمد المهدي، وعمران بن بركة رئيس مجلس الشيوخ، وعلي بن عبد المولى حاكم الجغبوب بمثابة وزير داخلية ومالية في وقت واحد إلى جانب نظارة الخاصة الإمامية، ومحمد المدني بمثابة وزير الشؤون الاجتماعية، ومحمد الشريف بمثابة وزير المعارف، إلى جانب نيابته عن الإمام

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص30.
(2) الحركة السنوسية، ص173.
(3) انظر: المهدي السنوسي، ص35.

المهدي، ورؤساء الزوايا كحكام للمناطق، وبمثابة نواب الأمة عندما يجمعهم المجلس الأعلى، وهناك مسؤوليات أخرى وزعت على من ذكرنا وغيرهم، كالإشراف على طلبة القرآن، وطلبة العلم، ومراقبة المعلمين في المدرستين القرآنية والعلمية، والإشراف على العمال، وعلى دار الضيافة، ولاستقبال الزوار، ومراقبة المكتبة الجغبوبية ونظام توزيع الأرزاق «التموين»، واستلام الوارد وحفظه، إلى جانب هذا النظام المحكم، هناك مجالس فرعية في كل إقليم من الأقاليم تضم رؤساء المراكز الإصلاحية في ذلك الإقليم، للنظر فيم يتعلق باختصاصهم، والشؤون المرتبطة بهم، فعلى هذا التخطيط كانت تُدار شؤون الحركة[1].

ومن الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة، وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

واهتم الإمام المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي والزراعي وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرآنية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب، كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التي يحتاجها الأهالي كالحدادة والنجارة... إلخ.

واستصلحت مساحات من الأراضي وصارت تنتج الخضار والتمور، وارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة في الصحراء، فكانت القوافل تمر منها في رحلاتها بين الساحل الإفريقي والصحراء، وبين مصر والمغرب، كما كانت قبلة وفود القبائل التي تدين بالولاء للسنوسية، وانتظم سير العمل في الزوايا بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين، فالرسائل مستمرة بين المهدي ورؤساء الزوايا تنقلها القوافل في طريقها، أو ينقلها في بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال، وتضمنت الرسائل تعاليم الحركة للزوايا وتقارير رؤساء الزوايا للمركز، بالإضافة إلى أخبار الحركة والإخوان[2] وكانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد في الحركة السنوسية في عهد الإمام المهدي ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب وكان ترتيبه على الوجه الآتي:

- بريد خاص بزوايا طرابلس.

---

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص35.

(2) الحركة السنوسية، ص180.

لقد دخلت عدة قبائل إفريقية في الدعوة الإسلامية بفضل الله تعالى ثم جهود الحركة السنوسية، ومن أشهر القبائل التي استجابت لدعاة الحركة السنوسية: قبيلة بلي التي كانت على الوثنية، ووصلت الدعوة الإسلامية إلى شعب التيدا في بلاد تيبستس بالصحراء الكبرى جنوب واحة فزان، فقد كانوا لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وكان دعاة الحركة السنوسية قد توغلوا في إفريقيا ووصلوا إلى بلاد الجلا في الحبشة، فيرسلون إليها في كل عام من هَرَر، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير، وتكاد تجد كل الرؤساء منهم في بلاط الأمير بلا استثناء، وكانت الحركة السنوسية تفتح المدارس وتبني المساجد والمراكز الإصلاحية، وتشتري العبيد ثم يعلمونهم مبادىء الإسلام ثم يعتقونهم ويرسلونهم إلى أوطانهم وقبائلهم ليدعو أقوامهم إلى الإسلام[1].

واستفادت الحركة السنوسية من هجرة القبائل العربية القديمة في إفريقيا، وجددت الصلة معها ونسقت معها في الدعوة وفي الجهاد ضد فرنسا ومن أشهر هذه القبائل: أولاد سليمان، أولاد يعقوب، أولاد غنّام، المحافيظ وغيرها كثير، وكانت قد استقر بعضها في مالي، وتشاد، والنيجر، ونيجيريا، والكاميرون[2].

وتمكن الإمام المهدي من أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسا[3].

وواصل المهدي السنوسي سيره في فتح المراكز الإصلاحية، والمدارس القرآنية، وبناء المساجد التي اهتمت بنشر الإسلام، وقام بإرسال دعاة ومبشرين بالإسلام، ودين الله، اشتهر منهم العلامة محمد عبدالله السني، والشيخ حمودة المقعاوي، وطاهر الدغماري، وغيرهم كثير.

وقام المهدي بتقوية الصلات التجارية بين الزوايا وبين مراكز التجارة والأسواق المختلفة، ونتج عن ذلك استتباب الأمن في هذه الربوع وانتشار الطمأنينة، فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافي والصحارى من غير تردد، فظهرت بوادر العمران في الطرق الصحراوية وأصبح من الميسور على دعاة الحركة أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار في رحلاتهم وأسفارهم ويدعوا إلى الإسلام، ويقضوا على الوثنية، ويعطلوا بذلك أعمال التنصير الذي تدعمه الدول الأوروبية في إفريقيا، وبالفعل حققت الحركة انتشاراً عظيماً في أوساط إفريقيا مثل بلاد النيجر والكنغو، والكامرون، وجهات بحيرة تشاد، وذاع خبر

(1) انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم، ص49.
(2) انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى، محمد القشاط.
(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص58.

الحركة السنوسية في إفريقيا من خلال واداي وبرقو وكانم وأداموا والداهومي[1] وغيرها، وبدأت الدول الأوروبية تشعر بخطر الحركة السنوسية وشرعت في حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها، لقد صدمت الدول الأوروبية بالنتائج التي حققتها الحركة السنوسية، واشتاطت غضباً وحقداً على الإسلام، وهي ترى قبائل وثنية مثل التبو، والبرقو، والندى تدخل طائعة مختارة في الإسلام[2].

كان الدعاة السنوسيون يعملون بالليل والنهار، والسر والإعلان، ويقطعون المسافات الشاسعة من أجل دعوة الله تعالى، وكان بعضهم يترك أهله وأطفاله في الجغبوب، وذات مرة دخلت السيدة صالحة البسكرية زوجة ابن السنوسي على محمد المهدي، وكان يجلها ويحترمها، وقالت له: «إن نساء الإخوان قد سئمن كثرة أسفار أزواجهن، وطول تغيبهم، وعدم استقرارهم، فابتسم وقال: إن الجهاد طويل وشاق، وإن العمل يتطلب الجد، والشيء الذي ينتظرنا وينتظر إخواننا في المستقبل أشق مما هم عليه الآن»[3].

وكان الإمام المهدي مهتماً بالبناء الداخلي للحركة ولذلك أشرف بنفسه على إصلاح ذات البين بين القبائل، وكان يرى وحدة الصف والتربية الجهادية مهمة في مواجهة المعارك القادمة ضد الإسلام.

وعندما اشتد النزاع بين قبائل الجبارنة وأولاد علي ووصل إلى مرحلة أوشك القتال أن يندلع بينهم بسبب حادثة قتل جربوع بن الشيخ أبو سيف الكزة بمصر، وكان الشيخ أبو سيف ابن أبي شنيف الكزة من الشخصيات الظاهرة بين شيوخ الجبارنة ومسموع الكلمة، وهو والد المقتول، فأصبح داعية كبرى لغزو أولاد علي، وأنشد قصيدة باللغة الشعبية مثيرة لما كمن من الأحقاد والضغائن، مسعرة لشرار الغضب، ومذكية لنار الانتقام يستنجد بها جميع القبائل الموالية له أو التابعة والمرتبطة به، كما جرت العادات ويحثهم في قصيدته بالاستعداد لغزو أولاد علي وقتل رجالهم، وأخذ أموالهم وسبي نسائهم، وكانت مطلع قصيدته تقول:

يـا عـون مـن قـابـلا عـون وأشـرف عـلـى رأس عـال
أو جـنـة فـراجـيـن وحـسـون أو عـينـت طـامـيـة فـي الـمـشـالـي[4]

وكاد الشيخ أبو سيف أن ينجح فيما أراده للغزو حيث لبى طلبه وأخذت قبائل أولاد علي تستعد للمعركة، وأرسلت إلى الشيخ أبي سيف تدعوه للإسراع للقتال، وفي هذه الأثناء وصل

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص60.
(2) انظر: المهدي السنوسي، ص51.
(3) المصدر السابق نفسه، ص60.
(4) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص204.

كتاب من شيخ زاوية مسوس السنوسي الأشهب إلى الزعيم محمد المهدي يخبره بالأمر، فأرسل المهدي في طلب الشيخ أبي سيف بسرعة، فامتثل الأخير أمر السيد المهدي في الوقت الذي تقرر فيه الغزو وأرجأه إلى أن يعود من الجغبوب، ولما وصل الشيخ أبو سيف ومثل أمام يدي إمام الحركة السنوسية الذي أخذ ينصحه في الإقلاع عما عزم عليه، ويبين له حرمة هذا الفعل الجاهلي، فامتثل الشيخ أبو سيف أمر المهدي، وأقلع عن فكرته وعاهد إمام الحركة بالعدول عنها وأن لا يعود لمثلها، بالرغم عمّا في ذلك من المساس بكرامته وكرامة بني قومه وسمعتهم التي يرون حفظها في الأخذ بالثأر، ورجع الشيخ أبي سيف وبر بوعده وأمر قومه والنجدات التي استعدت لمساعدته بالرجوع إلى مواطنهم، وكتب إلى زعيم قبائل أولاد علي وبقية شيوخهم يخبرهم بالعدول عن رأيه وأن يكونوا في مأمن من جهته لا خوفاً منهم ولا خشية من العاقبة، ولكن امتثالاً لأمر الشرع وطاعة لزعيم الحركة السنوسية[1].

وكان المهدي يحرص دائماً على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسا وبعد وفاته قاتلت إيطاليا.

لقد كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقاً سلمياً تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان وفي مصر، وكذلك الدول الأوروبية.

خامساً: المنهج التربوي الجهادي:

حرص الإمام المهدي على تعميق المنهج التربوي في أتباع الحركة، وكان -رحمه الله- يدرك تماماً أن العمل بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يقتضي وجود القوة والسلطان، ولذلك جعل من الزوايا مركزاً لتعليم الرماية أيضاً، فكان يحث الإخوان والأتباع على إتقانها ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط ويحملهم على الطراد والجلاد، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد، وكان المهدي يمتلك خمسين بندقية خاصة يعتني بتنظيفها وإعدادها دائماً بيده ولا يرضى بأن يؤدي هذا غيره من أتباعه الكثيرين قصداً، وعمداً، حتى يقتدي به الناس ويهتموا بأمر الجهاد، ويحفلوا به[2].

ونشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعداداً مادياً ومعنوياً

(1) انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص205.

(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص60.

جيداً يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقيا، وقد أعرب السلطان عبد الحميد عن ثقته بقوة الحركة السنوسية قائلاً: «وإذا كان هناك أحد عليه الدفاع عن حقوقنا، فهو الشيخ السنوسي؛ لأنه قادر على أن يجمع حوله ثلاثين ألفاً من الرجال، ولن يتخلى عن بنغازي إلا بعد قتال، ثم إن صلته بمئات الألوف من أتباع الطرق والمريدين قوية، فإذا قام السنوسيون قومتهم، فلا بد أن يجروا الإيطاليين إلى صراع دموي أشد مما شهدته السودان في ثورة المهدي، لقد جهزنا السنوسي بمقدار كافٍ من الأسلحة والذخائر، فهم قوة لا يُستهان بهم أبداً»[1].

كان هذا التصريح بعدما وصلت للسلطان عبد الحميد المخططات الإيطالية التي كانت تستهدف ليبيا، لأن إيطاليا كانت تحلم بضم شمال إفريقيا؛ لأنها تراه ميراث إيطالي، هكذا صرح رئيس وزرائها «مارتيني»، لكن فرنسا احتلت تونس، وإنكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

واستطاعت مخابرات السلطان عبد الحميد الثاني أن تكشف سياسة إيطاليا في ليبيا التي كانت على ثلاث مراحل:

1 - الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية».

2 - العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا، بالطرق الدبلوماسية.

3 - إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون بحكمة وهدوء شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظاً لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط إيطاليا في ليبيا وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: «إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في ألبانيا، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من:

1 - طرابلس الغرب.

2 - ألبانيا.

3 - مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير، الإسكندرون، أنطاكيا.

---

(1) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ص147.

وقام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير اللازمة أمام أطماع إيطاليا، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ«15،000» جندي لتقويتها، وظل يقظاً حساساً تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس مما جعل الإيطاليون يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي، ولذلك حرص السلطان عبد الحميد على تقوية الحركة السنوسية ودعمها مادياً، ومعنوياً[1].

لقد اهتمت الحركة السنوسية بإعداد أفرادها للجهاد في سبيل الله ضد أوروبا الصليبية التي تهاجم ديار المسلمين في كل مكان، وكانت وسائل التربية عند الحركة السنوسية: روحية، وفكرية، ونفسية، وجسدية، واجتماعية، ومالية، فكان اهتمام الحركة بالتربية الروحية عظيماً، ولذلك تعلق أفراد الحركة السنوسية بالجنة، وحرصوا على رضى الله تعالى، وتعمقت مفاهيم القضاء والقدر في نفوسهم، فأصبحوا لا يخافون إلا الله، فكانوا يتربون على قول رسول الله ﷺ: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...»**[2].

فأجل المرء يكتب وهو في بطن أمه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة المعالم في فكر الحركة السنوسية، فأصبح أتباعها يؤدون واجبهم بكل شجاعة، وهم على يقين راسخ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

ولقد التقيت بالشيخ الفاضل رئيس المحاكم الشرعية في ليبيا سابقاً في زمن المملكة الليبية، الشيخ منصور المحجوب بمكة المكرمة، وحدثته عن حرصي على كتابة تاريخ الحركة السنوسية، فانساب في الحديث عن رجالات الحركة وحبهم للإسلام، وتعلقهم بالآخرة وجهادهم ضد فرنسا، وذكر بعض المجاهدين عندما استعصى عليهم فتح حصن من الحصون التي احتلتها فرنسا بتشاد قاموا بحصاره وتأخر الفتح، أقسم أحد الإخوان السنوسيين إما الشهادة وإما الفتح، وانقضّ كالأسد بجواده على الحصن، وكان ذلك الهجوم سبباً في الفتح، وفاضت عينا الشيخ منصور بالدموع، وشرع في البكاء ثم قال: أولئك قوم عرفوا الله وعملوا بهذه

(1) انظر: الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي الصلابي، ص686.
(2) انظر: صحيح مسلم رقم 2643.

المعرفة، ثم وجه الخطاب إليّ وقال لي: يا صلابي اتقِ الله في كتابتك، واعلم بأن الله سيحاسبك عليها يوم القيامة، وانتفضت من مكاني من شدة تأثير كلامه عليّ، وحثني على الإخلاص والرغبة فيما عند الله، وقال لي: أنا الآن قد تجاوزت السبعين من عمري، وقد رأيت الكثير في الدنيا، ورفع يده إلى فمه ثم نفخ في كفه وقال: إن حقيقة هذه الدنيا مثل هذه النفخة.

إن الشيخ منصور المحجوب يعتبر من أتباع الحركة السنوسية، وقد تولى مناصب كبيرة من رئاسة الجامعة الإسلامية بالبيضاء، وتولى رئاسة القضاء وهو من مؤسسي رابطة العالم الإسلامي، وأخبرني بأنه ماكث في مكة ينتظر الوفاة حتى يدفن في الأراضي المقدسة.

إن الحركة السنوسية اهتمت بتربية أتباعها على الصلاة والقيام، والصوم، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن الكريم الذي هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

إن من أعظم العبادات ومن أحسن الوسائل في التربية الروحية التي سلكها السنوسيون هي تلاوة القرآن الكريم والتفقه فيه، والعمل به، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

إن القرآن الكريم يطهر النفوس ويحيي القلوب، ويغذي الأرواح ويصل الأفراد بخالقهم العظيم سبحانه وتعالى، ولا تعجب أيها القارىء الكريم إذا علمت أن أحمد الشريف السنوسي القائد الثالث للحركة السنوسية - رحمه الله تعالى - كان يشترط في حرسه الخاص حفظ القرآن الكريم، وأن التعاقب بين جنوده يعرف عن طريق تلاوة الأجزاء من القرآن الكريم.

وكانت الحركة في وسائلها التربوية لأتباعها تهتم بأخبار العالم الإسلامي وتوصيلها إلى الأتباع، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور، وكانت القوافل تتوغل في الدول الإسلامية للتجارة، وتأتي بأخبار الإسلام والمسلمين، والأعداء، وكانت تغذي أتباعها بالتربية الفكرية والنفسية للوقوف ضد أطماع النصارى الغزاة المجرمين، وكانت تهتم بالتربية الجسدية لأتباعها، ولذلك نجدهم يقطعون الفيافي والصحارى على الجمال، ثم يجاهدون الأعداء بعد قطع مئات الكيلومترات، وقد وجدت في سيرة عمر المختار - رحمه الله - أنه قطع على جواده ثلاثة أيام متواصلة ليلها بنهارها لفض النزاع بين عزير المصري قائد ضباط الأتراك وإحدى القبائل، وهذا يدل على لياقة بدنية عالية، وقوة بدنية متميزة.

كان المهدي السنوسي يسير بخطى ثابتة، ووفق أهداف مرسومة، ويستعد للمستقبل حيث بدأت الأطماع الفرنسية تتوغل في إفريقيا، وبدأت الدول الأوروبية تصطدم مصالحها مع وجود الحركة السنوسية في إفريقيا.

سادساً: موقف الدول الأوروبية من الحركة:

حققت الحركة السنوسية انتشاراً كبيراً في أواسط إفريقيا، وتوطد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصوماً عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، فحاولت الدول الأوروبية التقدم والتقرب من الإمام المهدي السنوسي، فكان لا يأبه بمحاولة هذه الدول من أجل التقرب إليه، وفشلت وسائلهم في اجتذابه إليهم، وأعرض عنهم، وعظمت مخاوفهم من تشكيلاته، وحركاته، وانكبوا يسعون لدى الدولة العثمانية ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد الثاني كي يتوسط بوصفه الخليفة الأكبر في استدعاء السيد المهدي في إفريقيا للإقامة في أرض الحجاز أو في دار الخلافة وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه، ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة، بل وقف مع محمد المهدي موقفاً مشرفاً.

لقد وجدت الرسالات التنصيرية المسيحية في السنوسيين خصوماً عنيدين عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، إن لم يكونوا قد أفسدوا هذه الأعمال في بعض الجهات وأبطلوها، زد على أن نجاح الدعوة السنوسية وتقوية أركانها جعلت الدول الأوروبية تسعى لتوقي خطرها، ووجدت فرنسا نفسها في طريق الاصطدام عاجلاً أو آجلاً مع الحركة السنوسية، أضف إلى ذلك أصبحت إيطاليا بعد وحدتها تتطلع إلى احتلال طرابلس الغرب، وغدت تبذل كل ما بوسعها لكسب المهدي السنوسي، لعلها تظفر بسكوته حينما تواتيها الفرصة لتحقيق هدفها، وأما ألمانيا بعد خروجها منتصرة من الحرب السبعينية شرعت في كسب المهدي حتى يدعمهم ضد فرنسا في إفريقيا الغربية[1]، فحاولوا عام 1872م مفاوضة المهدي على أمل تحريكه ضد الجهات التي خضعت للفرنسيين في إفريقيا الشمالية والغربية، ولكن محاولتهم ذهبت سدى، لأن المهدي رفض مقابلة الرسل الذين أوفدوهم إليه فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكنوا من الحديث معه، ومع هذا فقد تكررت محاولات الألمان في الأعوام التالية للغرض نفسه، واستطاع الرحالة (جبرار رولفس) في عام 1876م أن يزور برقة والكفرة ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدي، ووقف عند «سبر سلام» بالقرب منها، وقابله أحمد بن البسكري عدة مرات، ولكنه عجز عن الوصول إلى المهدي السنوسي[2].

تولت فرنسا مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عدداً من الرحالة منهم دوفريه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً وشنت عليها حرباً دعائية، بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلى موقفها العدائي في ضغطها

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص65، 66.

(2) المصدر السابق نفسه، ص69.

على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد، وسنتحدث عنها في موضع آخر.

وكان أكثر الرحالة الفرنسيين تعصباً في كتاباته دوفرييه الذي اتهم السنوسية بعدة تهم، وبالغ في تخيلاته، وذلك أنه رأى في الحركة خطراً عظيماً يتهدد مصالح فرنسا والمسيحية في إفريقيا، وقد اعتبر دوفرييه السنوسية مسؤولة عن جميع حوادث الاغتيال التي حدثت في الصحراء ضد بعض الرحالة الأوروبين، كما اتهمها بالتعصب وكراهية اليهود والنصارى وصورها عدوًّا فاغراً فاه للقضاء على الأوروبيين، وزعم أنها حرّكت وساعدت جميع الثورات التي قامت في الجزائر، وقد وافق الرحالة لوي رين على بعض هذه التهم ورددها كتاب آخرون مثل مونتيه وهوايت وفبرود.

إن السنوسية ما تعرضت لمثل هذه الحرب الدعائية إلا لكونها حركة إسلامية جهادية دعوية شاملة من مفاهيمها[1] أما اتهامها بالاغتيالات فهذا باطل ومردود بالحجة والبرهان والدليل، بل كان الإمام المهدي يعامل غير المسلمين باللطف والبشاشة والرفق وحسن الخلق، وعندما يريدون الرجوع يرسل معهم من يوصلهم إلى المكان الذي يريدون سواء مصر أو درنة أو بنغازي، ويقول للإخوان: «لا بد لنا من إكرام الأجنبي، ويعني غير المسلم، عسى الله أن يهديه إلى الدين الحق؛ لأن من واجبات المسلم وشعائره إكرام الضيف كيفما كانت ديانته ليبلغ عنا ما شاهده منا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[2].

وفي عام 1312هـ قدم الجغبوب رجل إنكليزي، فأراد بعض الإخوان أن يؤذوه، لكنه طلب مقابلة الشيخ المهدي فأذن له في ذلك، واجتمع به وسئل هل له حاجة إلى الشيخ؟ فقال: ما عندي حاجة، إنما القصد من إتياني النظر في وجه الشيخ لما أسمع عنه، وحظي الإنكليزي بالإكرام، وحسن القبول، ومكث عنده ثلاثة أيام ضيفاً كريماً ثم كرّ راجعاً إلى طريق مصر[3].

وكان محمد المهدي السنوسي يوصي جميع إخوانه ومشايخ الزوايا، وأتباع الحركة بعدم أخذ أموال السواحين والغرباء ولو من الإفرنج، ويقول على رؤوس الأشهاد: إن قتلهم وأخذ أموالهم لظلم عظيم، والظلم يرجع على فاعله بالنكال والوبال[4].

أما اتهام الحركة السنوسية بكراهية اليهود والنصارى، فالمعلوم عنها تمسكها بالشريعة، فكان أتباعها يعاملون أهل الكتاب حسب توجيهات الإسلام، وأما كراهيتهم للمستعمرين

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص198.
(2) انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشي، ص165.
(3) انظر: المصدر السابق نفسه، ص165، 166.
(4) المصدر السابق نفسه، ص167.

المعتدين، فهذا أمر يوجبه عليهم دينهم، وكان القصد من الحرب الإعلامية الداعية تمهيد الرأي العام الأوروبي وإقناعه بما ستخطوه فرنسا ضد الحركة فيما بعد، وقد أنصف عدد من الكتاب المحدثين السنوسية وردوا على تلك التهم، منهم: محمد فؤاد شكري، زيادة نقولا، بريتشارد الحشائشي[1].

أما بريطانيا فكان موقفها من الحركة السنوسية في بداية الأمر استطلاعياً، وكانت حريصة على جمع معلومات دقيقة عن الحركة، وخصوصاً وأن لها أطماعاً في مصر، وتخشى من جهاد السنوسية ضدها، كما أن نفوذ بريطانيا في طرابلس كان قوياً، وقد زار الرحالة هاملتون الإنكليزي سيوه، وتحدث عن الحركة السنوسية، واستمر موقف بريطانيا يمتاز بالهدوء تجاه الحركة السنوسية، حتى عام 1882م عندها شرعت بريطانيا باحتلال مصر، وقامت ثورة عرابي، تحركت بريطانيا بكافة الوسائل المتاحة لها لتمنع أية مساعدة متوقعة قد تُقدم لعرابي، وتدخلت لدى الدولة العثمانية لمنع الحركة السنوسية من دعم الثورة العرابية[2].

سابعاً: موقف محمد المهدي من الحركة العرابية:

عندما اشتعلت الثورة العرابية عام 1882م اتصل أحمد عرابي طالباً للعون والمدد وعلمت بريطانيا بالأمر، فتدخلت لدى الدولة العثمانية ونشط قنصلها في طرابلس الغرب لمعرفة موقف المهدي، ويتضح من إحدى الرسائل التي بعث بها والي طرابلس إلى ولاية بنغازي بتاريخ 16 أغسطس 1882م أنه انتشر خبر مضمونه أن عدداً من قبائل برقة تهيئوا للالتحاق بعرابي وأن الخبر وصل إلى طرابلس من الآستانة، وأن قنصل بريطانيا في طرابلس يستفسر عن صحته، ويقول الوالي: «في حال أن هذا الخبر صحيح نطلب منكم إجراء التدابير الحكيمة»، وقد اتضح لدى تحقيق المسؤولين في بنغازي أن هذه الجماعة التي تريد دخول مصر ما هي إلا حجاج، وأن شيخ الركب هو شيخ الحجاج»[3].

إن المهدي السنوسي كان حريصاً على نموه الطبيعي، ولذلك ابتعد عن الدخول في حروب لم يستعد لها، ويبدو أن المهدي السنوسي لم يقتنع بجدوى الثورة، كأسلوب لتحقيق مطالب عرابي؛ لأنها تتيح للأجانب التدخل، وقد وضح هذا الرأي في رسالة بعث بها محمد الشريف أخو المهدي إلى الشيخ مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ شعبان 1306هـ بمناسبة قيام إحدى قبائل برقة بالعصيان على الدولة العثمانية، إذ قال فيها: «ونرجو أن تكون الفتنة التي بالوطن قد طفئت؛ لأنها مخيفة سيئة العاقبة تشبه الفتنة العرابية التي من أجلها حل

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص199.

(2) انظر: دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، رسائل الولاة.

(3) انظر: الحركة السنوسية، ص200.

بالوطن الشرقي وأهله ما حل؛ لأنهم يحركونها ويعجزون عنها فتكون العاقبة التسليم للأجانب، فلو أنهم سلكوا طريقاً غير هذا لكان أسهل وآمن عاقبة، وذلك بأن يلتجئوا للحضرة السلطانية ويلتمسوا من مراحمها الشاهانية التخفيف من هذا المجهول عليهم قائلين إنهم لا قدرة لهذا الأمر الشاق، والتكليف بما لا يُطاق، وإن قلتم لا بد منه نجلو عن الوطن بالكلية إذ لا قدرة لنا على العطاء ولا على المخالفة..»[1].

إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة، تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء والتربية والإعداد العقدي، والوسائل السلميّة هي الطريقة المثلى، وتجنب الفتنة حتى لا يتدخل الأجانب في شؤون المسلمين، وكان المهدي قد ألزم نفسه وأتباعه سياسة حكيمة رشيدة، بعيدة عن ردود الأفعال، يقول الأستاذ نيقولا زيادة: «طلب العرابيون مساعدته عام 1882م، وتقدمت إليه إيطاليا راغبة في الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسي في تونس عام 1881م وحتى السلطان العثماني طلب منه العون في حربه هذه ضد روسيا عام 1876م، وجرب الألمان أن يحصلوا على عون منه ضد فرنسا في إفريقيا عام 1872م، لكن السيد المهدي رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل أن يظل بمنأى عن النزاع الدولي ليتم لهم نشر الإسلام وإصلاح أحوال المجتمع المسلم الذي نذر نفسه له، شأن أبيه من قبل»[2].

حاول زعيم الثورة العرابية أحمد العرابي أن يثير الإخوان السنوسيين وشرح لهم موقفه وجهاده، ومن بين من كتب لهم السادة: أحمد الريفي، وفالح الظاهري، محمد البسكري، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس الأشهب، وأحمد العيساوي، وعندما وصلت الكتب إلى أولئك السادة رفع كل منهم كتابه الخاص إلى السيد المهدي ورفضوا الرد على عرابي باشا ما لم يؤمروا من السيد المهدي، إذ لا حق لهم في المخابرات السياسية والاتصال في مثل هذه الأحوال بالعالم الخارجي دون أن يأمرهم زعيم الحركة[3].

وهذا يدل على قوة التنظيم، ومتانة الحركة، وهيبة القيادة، وفهم الإخوان وتلاحم الصف، ودراسة الأمور بتأني.

ثامناً: موقف المهدي السنوسي من الثورة السودانية:

سمع محمد أحمد المهدي السوداني بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق، وانتصار عظيم، وتوسع كبير في الصحراء الكبرى، وفي القبائل الليبية، فرغب بضم هذه الحركة إليه، فأرسل محمد المهدي في عام 1300هـ رسالة إلى محمد المهدي السنوسي مع أحد أتباعه واسمه «الطاهر إسحق» وهو من أهالي البلاد الواقعة غرب دارفور، وقد جاء في الرسالة: «بسم الله

(1 - 2) انظر: المهدي السنوسي، ص59.

(3) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص154.

الرحمن الرحيم: الحمد لله الولي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد: فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن عبدالله إلى حبيبه في الله محمد المهدي بن الولي السنوسي، فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرقي العباد إلى مقام التقريب، قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الأعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، فلم ترد إلينا المكاتبة وأظن عدم وصولها إليك حتى أني ذاكرت المعنيين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما طلب رب العالمين وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من الممات، ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون وفيما عند الله يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على عبده الحقير، والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير، فأمرني رسول الله ﷺ أن أكاتب بها الشرق والغرب من غني أو فقير فصدق بها من أراد الله سعادته وكذب بها الأشقياء، وصاروا في النكير، مع أن النبي ﷺ قد خلفني بالمهدية مراراً بالجلوس على كرسيه، وألبسني سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام، وأعلمت أنه لا ينصر عليّ أحد بعد إتيان سيف النصر إليّ من حضرته ﷺ ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد، وأنت منا على بال حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي ﷺ، أنك من الوزراء لي ثم لا زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي ﷺ والخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه، ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي ﷺ خلفاء خلفائه من أصحابي فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان، وقال: هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم أجمعين.

ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء رسول الله ﷺ، واعلم وإن كان لا يخفى عليك أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بينه المحققون، كالسيد أحمد بن إدريس، فإنه قد قال: «كتبت في المهدية أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله» وقال: «سيخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونها». وكذلك قال محيي الدين في بعض تفاسيره إلى غير ذلك من أقوال المحققين، ولا سيما وأن المهدية لا تدعي لكثرة أعدائها وقوتهم وعلى أنها لما ظهرت أنا بينهم أظهرهم في أشد الضعف والقلة، فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا في الدنيا يوماً واحداً من شدة قوتهم وضعفنا وهم محتاطون بنا من كل جانب، فألقى الله في قلوبهم الرعب ومدهم بالخيبة، وقد أمرنا النبي ﷺ بالهجرة إلى جبل الغرب يقال له قدير، يلصق جبل يقال له: ماسة، فجمعوا جموعهم إلينا مراراً

فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار، يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي، وقد أعلم ﷺ أن من شك في مهديتي كافر وكررها ثلاثاً ومراراً يقول: من أنكر مهديتي ومن خالفني فأبى أمري كافر، فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي، ومن جعل الله له شكوكاً وشبهاً تصده عن الإيمان بمهديتي، فيخذله الله في الدنيا قبل الآخرة إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد. فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر وجهاتها أو تهاجر إلينا»[1].

وكان رد السنوسي بقوله: «إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان رضي الله عنه في إحدى غزواته مع رسول الله ﷺ ولا جواب عندي على هذا الكتاب» ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء[2] «وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكناً مع المتمهدي بل إذا جاءه محارباً يحاربه»[3].

ولم يؤمن المهدي السنوسي ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السوداني، وقاوم أتباع الحركة السنوسية في السودان الغربي نفوذ ثورة محمد أحمد السوداني، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه ماذا سيكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته، فكان رد المهدي: «إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلماً لا حرباً بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفوراً عظيماً بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها والجرائم التي يرتكبها في السودان»[4]، وقد قامت الممالك في السودان الغربي (تشاد) بمحاربة التعايشي خليفة محمد أحمد السوداني وحدّت من انتشار حركته.

إن علماء الحركة السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي، واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعاً من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين، واستيعابهم لكتاب الله والسنة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد.

إن الأحاديث الصحيحة بينت بأن الله تعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما مُلئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطراً، وتُعطي المال بغير عدد.

(1) انظر: السودان بين يدي كتشنر وغوردن، إبراهيم فوزي، 1/216.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص190.
(3) المصدر السابق نفسه، ص191.
(4) انظر: المهدي السنوسي، ص58.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»[1].

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد، أو أحمد بن عبدالله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسين بن علي رضي الله عنه.

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه»[2]. وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»[3].

ويكون مكان ظهوره من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلوكم قتلاً لم يقتله قوم، . . .** (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه) **فإذا رأيتموه فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي**»[4].

قال ابن كثير رحمه الله: «والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء» كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا النوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا سنة، ولا معقول صحيح، ولا استحسان»، إلى أن قال: «ويؤيد بناس من أهل الشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سود أيضاً، وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها العقاب».

إلى أن قال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»[5].

ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟**»[6].

---

(1) انظر: النهاية، الفتن والملاحم (1/ 31) تحقيق د. طه زيني.

(2) النهاية، الفتن والملاحم 1/ 29.

(3) الأجلى: الخفيف الشعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

(4) انظر: ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي 2/ 1367.

(5) انظر: النهاية، الفتن والملاحم، 1/ 31.

(6) انظر: البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى ابن مريم 6/ 491 مع الفتح.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»** إلى أن قال: **«فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»**[1].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهُداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في «الصحيحين»، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يُسمى: محمد بن عبدالله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه»**[2].

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة»**[3].

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين»**[4].

لقد جاءت الأحاديث بالتواتر عن خبر المهدي:

قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[5].

قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ

---

(1) انظر: مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم 2/ 193 مع شرح النووي.
(2) انظر: رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الألباني صحيح الجامع الصغير 5/ 7170.
(3) انظر: المنار المنيف لابن القيم، ص147، 148.
(4) انظر: سنن أبي داود، كتاب المهدي، 11/ 375 رقم 4265.
(5) انظر: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[1].

وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»[2].

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد؛ «مسند أحمد»، و«مسند البزار»، و«مسند أبي يعلى»، و«مسند المحارب ابن أبي أسامة»، و«مستدرك الحاكم»، و«مصنف ابن أبي شيبة»، و«صحيح ابن خزيمة»، وغيرها من المصنفات[3] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي، فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه[4]، ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب أمثال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير «المنار» وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة[5].

وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[6] محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام».

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون في تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال - بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها.: «فهذه جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[7].

قال يوسف الوابل في «أشراط الساعة» تعليقاً على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[8].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: الجرح مقدم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ

(1) انظر: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، ص112.
(2) انظر: نظم المتناثر في الحديث المتواتر، ص147.
(3) انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص166، 168.
(4) انظر: الدولة العبيدية، لعلي محمد الصلابي، ص62.
(5) انظر: تفسير المنار (9/ 499 . 504).
(6) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، 10/ 480.
(7) انظر: مقدمة ابن خلدون 1/ 574.
(8) انظر: أشراط الساعة للوابل، ص267.

وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[1].

ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين.

إن ما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد - رحمهم الله تعالى - ليس صواباً، وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً، وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمدلله، وأيضاً فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يَعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ[2].

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

(1) انظر: مسند الإمام أحمد 5/ 197 . 198.

(2) انظر: أشراط الساعة، ص267.

ما آن للسرداب أن يَلد الذي كلمتموه بجهلكم ما آنا؟
فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم ثلّثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم وضحكة يسخر منهم كل عاقل»[1].

إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام محمد المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها، وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك محمد إدريس -رحمه الله- عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهديته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبداً لم يعتقد به...»[2].

(1) انظر: المنار المنيف، ص152، 153.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص187.

obeikandl.com

المبحث الثاني

موقف محمد المهدي السنوسي والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية

في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني طلب من السيد محمد المهدي السنوسي إرسال قوة من رجاله من الأقطار البرقاوية الطرابلسية لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا عام 1877م إلا أن السنوسي امتنع عن تنفيذ الطلب، لانشغاله بالبناء والتربية والتكوين، والانتشار بالدعوة، والاستعداد للجهاد، وهذا الامتناع جعل السلطان عبد الحميد يرسل الرسل إلى الإمام المهدي السنوسي للوقوف على حقيقة أمره، وبذل السلطان عبد الحميد الثاني جهداً كبيراً في سبيل التعرف على طبيعة الحركة السنوسية، وحقيقة نواياها، وأهدافها، ومدى استعداد زعيمها للعمل ضمن سياسته في الجامعة الإسلامية، وتمت الخطوة الأولى في هذا المجال بطلب من الداخلية العثمانية إلى واليها في طرابلس، لموافاتها بمعلومات عن الحركة ونشاطها.

أجاب الوالي كمال باشا (1893 - 1898م) بما يُشعر بحسن علاقة الوالي بالحركة السنوسية، واطمئنانه إلى نواياها، وثقته برجالاتها، وأكد في رسالته التي بعثها للسلطات العثمانية في استانبول على الفوائد العلمية والاجتماعية التي حققتها زوايا الحركة السنوسية المنتشرة في الصحراء الكبرى[1] بين أعراب البادية، ورفع مستوياتهم الدينية والخلقية والثقافية، ومزاحمتها الفعالة للجمعيات التنصيرية المنبثة في القارة الإفريقية، ودخول الكثير من الزنوج في الإسلام بتأثير دعايتها له، وأكد الوالي في ختام رسالته: انقياد الحركة بزواياها وقادتها إلى دولة الخلافة العثمانية[2].

أوفد السلطان عبد الحميد بعثة برئاسة رشيد باشا والي بنغازي ومعه الصادق المؤيد العظيم أحد ياورات السلطان إلى واحة الجغبوب في ليبيا وذلك عام 1889م، ومما جاء في أخبار البعثة أن المهدي السنوسي قد أحسن استقبال البعثة وأتاح لأعضائها مشاهدة زاوية الجغبوب والاطلاع على أعمال أتباع السنوسية، وأن المهدي السنوسي لم يكن إلا داعياً مرشداً، وإنه يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية[3].

وبعد انتقال المهدي السنوسي من واحة الجغبوب إلى واحة الكفرة في أقصى الجنوب من

---

(1) انظر: حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، ص230.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص204، 205.

(3) انظر: حاضر العالم الإسلامي، 2/ 162.

ولاية طرابلس عام 1895م، أرسل أحد أتباعه وهو الشيخ عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول، لتأكيد إخلاصه وولائه للسلطان العثماني، وليطلب منه تأكيد الفرمانات التي صدرت من قبل للسنوسيين[1].

أصدر الباب العالي أوامره في إجراء التأكيدات اللازمة لولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي، في التزام الاهتمام والرعاية، والاحترام تجاه الحركة السنوسية وأتباعها، وتقديم فريد العناية بكافة الزوايا[2].

وقد أرسل السلطان مع الشيخ العيساوي هدايا للمهدي السنوسي من بينها نسخة مطبوعة من «صحيح البخاري» له خاصة، خلاف عشر نسخ أخرى تعطى من قبله لمن يرى فيه الأهلية، كما أرسل له ساعة «لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة بمصالح دعواته لجنابه العالي»[3].

ورد السلطان على هذه البعثة بإرسال الصادق المؤيد العظم بزيارة المهدي السنوسي في واحة الكفرة، وهناك اطلع الصادق بنفسه على أحوال الزاوية واجتمع بالمهدي الذي استقبله استقبالاً طيباً، واطمأن لحسن توجهه نحو السلطنة العثمانية، ومما ذكره الصادق المؤيد العظم في رحلته عن المهدي «أنه شيخ صادق لمقام الخلافة، وحسب وصية والده، فهو في كل صباح عقب الصلاة يجري الدعاء بالصحة والعافية لخليفة المسلمين، ثم تقرأ الفاتحة، وذلك في جميع الزوايا، وهو دائماً يوصي أتباعه بطاعة أمير المؤمنين، ومحبة الدولة العثمانية؛ لأن طاعتها واجبة شرعاً وعقلاً»[4].

ومما زاد السلطان عبد الحميد ثقة بالحركة السنوسية كثرة شكايات الدول الأوروبية من الحركة، وتبرم قناصل الدول من نشاطها، لعرقلتها الكثير من مشاريعهم التبشيرية التي كانوا ينوون تنفيذها[5].

وحين اطمأن السلطان عبد الحميد الثاني إلى صدق توجه الحركه السنوسية لدولة الخلافة العثمانية وإخلاصها في العمل لسياسة الجامعة الإسلامية، بعث السلطان عبد الحميد إلى محمد المهدي السنوسي رسالة تتضمن أسس حركة الجامعة الإسلامية وحقيقة أبعادها وأهدافها، والدور الذي يمكن أن تقوم به الحركة السنوسية ضمن هذه السياسة[6].

---

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص58.
(2) انظر: المصدر السابق.
(3) المصدر السابق نفسه، ص86.
(4) انظر: رحلة إلى صحراء إفريقيا الكبرى، صادق المؤيد، ص48 . 49.
(5) انظر: تعليق على حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان، 2/ 162.
(6) انظر: السنوسية دين ودولة، ص87.

وأكد السلطان في رسالته على أهمية الخلافة والإمارة الإسلامية المقدسة التي أثبتها الله في البيت العثماني منذ مئات السنين، وما افترضه الله على المسلمين من نصرة هذه الخلافة وتأييدها وطاعة ولاة الأمر القائمين على أمرها، ولا سيما في مثل هذه الظروف التي تحيط بالعالم الإسلامي، والتي جمع فيها من سماهم السلطان: «الأغيار من الكفار والملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومة للسنة والسنية وعزماً على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره»[1] وحذر السلطان عبد الحميد محمداً المهدي السنوسي من عمليات التسلل الأوروبي إلى داخل القارة الإفريقية تحت شعار الكشف الجغرافي، والبحث العلمي من جانب الإنجليز والإيطاليين وغيرهم، مبيناً المقاصد المضرة بالدين والمسلمين من قبل هؤلاء[2].

وأكد السلطان عبد الحميد الثاني على أهمية تبصرة كل من له علاقة بالسنوسية والمتبين طرقها وزواياها المنتشرة في الصحراء الإفريقية بضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية المقدسة والإمامة الكبرى الإسلامية، التي هي ضمان قوة المسلمين وشعار وحدتهم وتضامنهم[3].

كما بين لمحمد المهدي السنوسي الوسائل العلمية الواجبة الاتباع لمواجهة أعمال المبشرين وأعداء الإسلام والمسلمين في القارة الإفريقية لكشف وسائلهم وأهدافهم الكبرى، وذلك بتكثير أعداد الدعاة والعلماء وإعدادهم الإعداد المناسب وبثهم في كافة الأنحاء الإفريقية لنشر الإسلام بينهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، والتأكيد على أهمية الخلافة في حياة المسلمين، ودور الوحدة والتضامن في دفع غائلة المعتدين، وأعداء الملة والدين[4].

إن الليبيين عموماً ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنى الدعوة إليها، وأكدوا في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات وقد كتب على الاستمارات المعدة للجمع عبارة: «إعانة جهادية» وبلغ مجموع التبرعات، قرابة «مائة ألف فرنك»[5].

وامتدح الشيخ سليمان الباروني (1870 - 1940) أحد الزعماء الليبيين الدولة العثمانية وسلطانها، وأشاد بجيشها بمناسبة حربها مع اليونان وانتصارها عليهم[6].

(1 - 2) المصدر السابق نفسه، 87.

(3 - 4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص88.

(5) انظر: الحوليات الليبية، شارك فيرو 3/ 774.

(6) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، رعيمة الباروني، ص80.

وأنشد الشاعر مصطفى بن زكرى بهذه المناسبة قصيدة قال فيها:

يا سعد سر مترنماً ببشائر السعد المبين
واعطف على دار الخلافة باليسار وباليمين
وإذا مررت «ببليدز» وسعدت بالملك المكين
تاج الخلافة بهجة الدنيا وعز المسلمين
عبد الحميد وناصر الدين الحنيفي المبين[1]

وعن اليونانيين أعداء الخلافة قال:

مهلاً بني اليونان لستم في الحروب بمعجزين
وجنودكم أمست «بترناوة» حصيداً خامدين[2]

وساهمت صحافة ليبيا في المدن - رغم نشأتها المتأخرة - بدعم حركة الجامعة الإسلامية، ففي أول ديسمبر 1908م ظهرت جريدة «الكشاف»، وكان صاحب امتيازها ومديرها المسؤول محمد النائب الأنصاري، ووصف الجريدة بأنها ملتزمة بخط الجامعة الإسلامية[3].

وفي أوائل مارس 1908م صدر العدد الأول من جريدة «العصر الجديد» التي وصفت نفسها بأنها سياسية علمية، وجعلت شعارها «من الشعب إلى الشعب» وتعاطفت مع «اللواء» المصرية، كما سارت في تيارها بتبني فكرة الجامعة الإسلامية[4].

وفي إستانبول أصدر الزعيم الليبي عبد الوهاب عبد الصمد صحيفة «دار الخلافة» وجعلت محور سياستها الدفاع عن الخلافة والجامعة الإسلامية[5].

وأسس الشيخ سليمان الباروني في القاهرة مطبعة عام 1325هـ/ 1908م سمَّاها «الأزهار البارونية» التي حدد هدفها قائلاً: «أن تكون خادمة للدين، سائرة في ركاب الجامعة الإسلامية، ناثرة للآداب ولكل ما فيه نفع وإرشاد الأمة والهيئة الاجتماعية مترقية في مدارج التقدم»[6] وأصدرت المطبعة جريدتها باسم «الأسد الإسلامي» في عام 1908م[7].

اهتم سليمان الباروني بفكرة الجامعة الإسلامية، واتخذ من جريدته منبراً لإعلاء فكرتها،

---

(1) انظر: صلات بين ليبيا والترك، للمصراتي، ص182 . 196.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: صحافة ليبيا في نصف قرن، علي المصراتي، ص100.
(4) المصدر السابق نفسه، ص73.
(5) المصدر السابق نفسه ص109.
(6) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص40.
(7) انظر: الحوليات الليبية، 3/ 786

ومجالاً لبحث مشاكل المسلمين وتقصي أخبارهم، ومما جاء في افتتاحية العدد الأول منها.. «فقد كان الرشاد في الأمة في زمن انقياد أفرادها بطبيعتهم لقوانين الشرع الشريف، ووقوفهم عند مناهيه، ثم لما دارت الأيام بدوران الدهر، وتغيرت الطبائع باختلاف أصناف البشر، وقع التساهل في أمر الدين، وانحلت عرى الاتحاد وساد الشقاق»، وتؤكد الجريدة أنه سيكون على رأس اهتماماتها بذل النصح للأمة الإسلامية وإرشادها إلى ما يعود عليها بالنفع العاجل والآجل، والتقدم في مباراة الأمم الحية، ومزاحمتها في معترك الحياة الهنيئة[1].

وتساءل الباروني عن الأسباب الكائنة وراء فرقة المسلمين وتفككهم، وما إذا كان ممكناً لمّ شعثها وتوحيد كلمتها في هذا الزمن الذي هم فيه أحوج إلى الاتحاد من أي شيء آخر[2]، وهو يؤكد أن هذا ممكن، مدللاً عليه بشدة اهتمام أوروبا وساستها وكتابها بملاحظة الحالة التي بدأت تظهر بين المسلمين، بفعل ما يبديه سلطانهم عبد الحميد وإلى جانبه المخلصون للعمل في سبيل تحقيق ما بينهم من جامعة تضم كلمتهم وتوحد رأيهم وتجمع شتاتهم أينما كانوا في أطراف المعمورة، حتى إذا ما كانوا يداً واحدة، وعلى قلب رجل واحد، ناقشوا أوروبا الحساب وناصبوها الحرب[3].

وقد ظل عموم الليبيين على ولائهم للدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد، فهو بالنسبة لهم خليفة المسلمين، وملجأ الدنيا والدين، ودولته ملاذ المسلمين جميعاً ودرعهم الواقي ضد محاولات أوروبا للنيل من استقلالهم[4].

واستمر هذا الشعور قائماً لدى أهل المدن في ليبيا، وزعماء الحركة السنوسية وأتباعها، حتى قام حزب الاتحاد والترقي في تركيا بإبعاد السلطان عبد الحميد الثاني 1908م فلم يشعر أهل الولاية إزاء هذه الحركة بالاطمئنان، ولم يستبشروا بها خيراً، بل قابلوها بالمعاداة والاستهجان، لما عرفوه عن الاتحاديين من «بعد عن الحكمة ومناهضة الدين»[5] واستهجن الليبيون إعلان الدستور، ولم يروا مبرراً لصدوره خاصة والشريعة الإسلامية كفيلة بسد حاجتهم، ووقع إثر ذلك حوادث كبيرة في طرابلس ضد الحركة والقائمين بها، وطالب غالبية الناس بإبعاد من قدم إلى الولاية من الاتحاديين[6].

---

(1) انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص20.
(2) المصدر السابق نفسه، ص31.
(3) المصدر السابق نفسه، ص23.
(4) انظر: قضية ليبيا، محمود الشنيطي، ص27.
(5) انظر: حركة الجامعة العربية، الشوابكة، ص237.
(6) المصدر السابق نفسه.

ويذكر كاكيا: «إن الأهالي في ليبيا نظروا إلى الجمعية بغير الرضى، وكرهوا رجالها، لتدخلهم في مسائل العادات والدين، وعدّوا إعلان الدستور انتهاكاً للشريعة الإسلامية»[1].

إن زعماء الحركة السنوسية كانوا شديدي الولاء للدولة العثمانية وكذلك زعماء المدن الليبية، وهذا يدل على الوعي العميق وشعورهم بضرورة مساندة دولة الخلافة، والمحافظة عليها من منطلق شرعي يدينون به للمولى ﷻ، وكان هذا الفهم منبثقاً من فهمهم لقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103] ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، فقد كان أجدادنا يرون: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً»[2].

وإن كانت الخلافة الإسلامية العثمانية خرجت في آخر أيامها عن خطها الصحيح لأسباب وعوامل داخلية وخارجية، إلا أنها لا زالت في دائرة الإسلام، ولم تمرق منه مروق السهم، وخصوصاً قبل عزل السلطان عبد الحميد الثاني؛ ولذلك رأى زعماء الحركة السنوسية والليبيون عموماً عدم الخروج على الدولة العثمانية: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم طاعة لله ﷻ فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[3] هكذا كان موقف الحركات السنوسية وزعماء ليبيا من الدولة العثمانية.

(1) انظر: ليبيا في العهد العثماني، كاكيا من الترجمة العربية، ص60.
(2) انظر: تهذيب الطحاوية، للصاوي، ص296.
(3) المصدر السابق نفسه، ص302.

المبحث الثالث
رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو

أولاً: الرحلة إلى الكفرة والصدام مع فرنسا:

كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الاستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطرق، والأمتعة الضرورية، وعين الإمام السنوسي رفقاءه في سفره إلى العاصمة الجديدة، وفي يوم 22 شوال سنة 1312هـ جمع الإمام السنوسي جميع سكان الجغبوب للوداع وألقى فيهم نصائحه الغالية، وانتقل بعد ذلك من الجغبوب والأفئدة تتقطع لهول الفراق والأعين وراءه شاخصة، فنزل بموقع قريب من الجغبوب يقال له حطيئة «الزربي» وبهذا المكان كان وداع المشيعين وفي طليعتهم كبار الإخوان، كالسيد أحمد الريفي، ومحمد عابد السنوسي، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس، وعمران السكوري، وهنا يظهر جلال الموقف وشدة الفراق، ونلمس ذلك في القصائد التي ألقيت يوم ذاك[1]. يقول الأديب الحشائشي: ولما أفاق أبو يوسف مقرب من غشيته التي أصابته عند مفارقة الشيخ المهدي، صعد فوق هضاب عال ومعه جماعة من الإخوان وتوجه إلى الركب بنظره وطفق ينشد ارتجالاً من شعره العذب ما يلين به الجلمود ويورق به العود[2] حيث قال:

همو هيجوا يوم النوى أشجاني ... وحاديهم لما ترنم أشجاني
وهم سلبوا لبي وألبس بينهم ... رداء الردى جسمي وأثواب أحزاني
وهم غادروا جسمي لظًى بعد مهجة ... جرى ذوبها من بحر مدمعي القاني
فوالله لا أنسى عشية ودعوا ... فأودعتهم صبري وأودعت سلواني
وضاعف أحزاني مواقف جمة ... وبرح بي فقدانهن وأضناني
يسائلني مولاي تسئال رحمة ... يحل بها شأني ويبئس الشاني
ومن أعجب الأشياء رحلة معشر ... غدت محشراً أوهت قوى كل إنسان
تبلد من جرائها كل سوقة ... وطأطأ إجلالاً لها كل سلطان
وزلزلت الدنيا وماجت بأهلها ... وعادت عواد بين ترك وعربان

(1) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص217.
(2) انظر: رحلة الحشائشي، ص168.

لـك الله مـن ركـب تـيـمـم كـفـرة ... تـتـاخـم كـيـوار الـمـتـاخـم سـودان
غـدا طـاويـاً نـشـر الـبـسـيـطـة بـاسـطـاً ... لأعـلام عـز تـنـجـد الـضـارع الـعـانـي
ومـنـتـقـيـاً عـزمـاً يـفـل بـحـده ... قـواطـع آراء مـن أهـل وجـيـران
ولـم يـثـنـه عـمـا نـوى ألـم الـنـوى ... وأنـة مـحـزون ورنـة صـبـيـان
وحـثـوا مـطـايـاهـم بـبـيـض قـبـابـهـم ... فـلاحـت نـجـوم دونـهـا نـجـم كـيـوان
سـروا والـديـاجـي حـالـك صـبـح لـونـهـا ... يـؤمـنـون أحـقـافـاً تـرى ذات ألـوان
وخـلـوا بـجـغـبـوب الـمـقـدسـة عـلـيـة ... يـعـلـون بـعـداً الـنـهـل طـلاب عـرفـان
وقـصـراً مـشـيـداً كـان مـطـمـح أنـفـس ... ومـطـلـع مـطـعـام ومـطـعـن مـطـعـان
ربـعـاً عـهـدنـا بـهـوه وهـو آهـل ... بـإنـجـاب أشـبـال وآسـاد خـفـان
وكـانـت لـهـم فـيـه مـواقـف جـمـة ... أنـاب لـهـا فـخـراً عـلـى كـل إيـوان
وحـلـت بـواديـه بـواد فـأصـبـحـوا ... نـشـاوي بـإنـشـاد وذكـر وقـرآن
وكـانـت بـمـغـنـاه عـلـومـاً يـبـثـهـا ... مـشـايـخ أعـلام، وأعـلام فـتـيـان
رووا مـتـنـهـا عـن حـافـظ أي حـافـظ ... أسـانـيـده تـعـلـو بـضـبـط وإتـقـان
هـو «ابـن الـسـنـوسـي» الـذي شـاع ذكـره ... بـكـل بـلاد بـيـن سـوس وإيـران
إمـام هـمـام كـان لـلـحـق قـبـلـة ... تـيـممـهـا الـقـاصـي مـن الـخـلـق والـداني
وشـهـرتـه تـغـنـي عـن إطـراء مـدحـه ... كـمـا اشـتـهـر «الـمـهـدي» بـالـعـالـم الـثـاني
سـقـى الله أرضـاً زارهـا صـوب قـطـره ... وسـاق لـذاك الـقـطـر عـارض نـسـيـان
عـلـى أنـهـا تـغـنـي بـعـذب نـوالـه ... ومـدراره عـن كـل أوطـن هـتـان
متـى تـسـتـشـفـي نـفـسـي بـقـرب لـقـائـه ... ويـسـتـن طـرف الـطـرف فـي روض إحـسـان
متـى يـأتـي مـولاي الـشـريـف مـصـاحـبـاً ... كـتـائـب كـتـاب بـبـيـض ومـران
فـإنـي مـن رجـعـاكـم لـسـت آيـسـاً ... ولا يـأس مـن روح ورحـمـة رحـمـن
وإنـي مـقـيـم سـادتـي بـرحـابـكـم ... عـلـى عـهـدكـم حـتـى ألـفّ بـأكـفـان
وإنـي أرجـو نـظـرة مـقـامـكـم ... تـسـلـي عـن الـدنـيـا وزخـرفـهـا الـفـانـي
عـلـيـكـم سـلام الله مـا هـبـت الـصـبـا ... تـحـيـة صـب خـافـق الـقـلـب هـيـمـان[1]

لقد كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مفاجأة لأهالي ليبيا واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وترك أثراً حزيناً أليماً في النفوس، ووصفه أحد الشعراء باللغة الشعبية فقال:

رحـل سـيـدي وارعـب لـوطـان ... عـظـيـم الـشـان حـركـاتـه بـإذن الـرحـمـن

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص169، 170، برقة العربية، ص217، 218.

رحـل سـيـدي وارعـب لـسـلام لـهـا صـارت شـدا أو نـكـد
وصـارت بـعـد الـضـي ظـلام عـلـيـك ضـيـقـاً فـي شـدائـد[1]

وكان الإخوان الذين رافقوا الإمام المهدي السنوسي في رحلته كل من: أحمد البسكري، أحمد التواتي، أحمد الثني الغدامسي، محمد السني، وغيرهم من كبار الإخوان[2].

ولما بلغ الشيخ واحة «الكفرة» تلقته قبيلة «زويا» من كبار قبائل العرب في الصحراء، ومن جاورها من القبائل، وكانوا في غاية الفرح والسرور، وكان في استقباله خارج منطقة الجوف أكثر من ثلاثة آلاف رجل يتقدمهم رئيس زاوية الجوف ومشايخ وأعيان قبيلة زوية ومن معهم من المجابرة، وابتهجت واحة الكفرة بقدوم زعيم الحركة السنوسية، وتبارت الخيول وأطلق الرصاص، وبهذه المناسبة قتل يونس الرويعي رجلاً من قبيلة الزوية بإصابة خطأ، فنادى شيوخ الزوية أعيانهم في قومهم بأن لا يترك الاحتفال من أجل موت أحدنا، وأن القاتل في مأمن إكراماً للإمام السنوسي، وبعد انتهاء الاحتفال اجتمع شيوخ وأعيان القبيلة وتقاسموا الدية الشرعية للمقتول ودفعوها إلى أهله فوراً وتسامحوا مع القاتل، كل ذلك تم في يومه، وقرر جميع أعيان وشيوخ زوية أن يتقدموا بهدية إلى زعيم الحركة السنوسية بمناسبة تشريفه إياهم بقدومه، وكانت الهدية هي التسامح فيما بين أفراد وقبائل زوية من الأحقاد، والتنازل عن حقوقهم التي يطلبها أحد أفراد القبيلة من الآخر، وتطلبها عائلة من أخرى مهما عظمت تلك الحقوق التي قد تؤدي إلى شقاق وفساد، وتنازلوا عن ثلث ممتلكاتهم وقفاً لأعمال الحركة السنوسية من نخيل وبساتين وأراضٍ، كل ذلك عن طيب خاطر وقربة لله، ودعماً للحركة الإسلامية التي تبنت دعوة الإسلام في الصحراء الكبرى، وأدغال إفريقيا، وتبرع جميع أغنياء القبيلة ومن معهم من تجار المجابرة بإطعام جميع الفقراء وكسوتهم، واستمر الفرح والاحتفال شهراً بعد وصول زعيم الحركة السنوسية الثاني الإمام المهدي، وشرع الإمام المهدي في بناء زاوية التاج التي اختطها محمد البسكري، حسب توجيهات زعيم الحركة، فأبدع في تخطيطها، وجعلها على قمة ربوة عالية تبعد عن زاوية الجوف بما لا يقل عن ميل ونصف تقريباً[3].

أصبحت الكفرة عاصمة الحركة السنوسية لوجود زعيمها فيها، ففتحت المدارس لتعليم القرآن الكريم، وتصدر مجالس التدريس كبار العلماء، وتقدمت سوقها التجارية تقدماً باهراً، إذ أصبحت تردها بضائع السودان، وتصدر إليه عنها، وهكذا الحال بينها وبين برقة من جهة، وبينها وبين مرص من جهة أخرى، وتحسنت زراعتها إلى حد بعيد، وجلبت إليها أشجار الفاكهة

(1) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص221.
(2) انظر: رحلة الحشائشي، ص171.
(3) انظر: برقة العربية، ص219، 220.

من واحة سيوة ودرنة، وغيرها، وعمرت بالسكان الذين هاجروا إليها من المجابرة والتبو والسودانيين، فضلاً عن سكانها المعروفين من قبائل الزوية، حتى أصبحت ذات أهمية كبرى في وقت قصير[1] وأصبحت قبيلة الزوية بمثابة الحرس الخاص لزعيم الحركة السنوسي[2].

تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفرة، فَعجت بالحركة وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها، وفي إحدى رسائل المهدي إلى محمد علي المحجوب في زاوية الطيلمون بليبيا يطلب المهدي إرسال خيام؛ لأن وفوداً كثيرة جاءت للتسليم عليه وهو خجل لعدم وجود بيوت تأويهم[3].

وقام الإمام السنوسي بإرسال رسله إلى مختلف الجهات، فأرسل مرتضى فركاش بن أبي خريص بكتاب إلى سلطان واداي ومعه رجلان، وأرسل رسالة لوالي بنغازي، وانتظمت الرسائل بينه وبين الزوايا، ونظم حياة الأهالي في الكفرة، وفرض النظام، ومنع الاعتداءات، ونشر السلام بين قبيلتي زوية والتبو اللتين تسكنانْ تلك المنطقة، ووجه الأتباع نحو العمل المثمر، سواء في تعمير الزوايا، والدعوة إلى الله، أو في التجارة، وقد زاد تبعاً لذلك عدد سكان الكفرة وانتعشت حياة الأهالي وعم الرخاء، واهتم بحفر الآبار المتتابعة على طول خطوط القوافل، فكان يرسل البعثات لإتمام ذلك، وأصبحت الكفرة ملتقى القوافل ما بين السودان الغربي «تشاد» والسودان الشرقي وسواحل برقة، ومن البعثات الاستكشافية التي أرسلها الإمام السنوسي التي اكتشفت حطية العوينات والحطايا التي تكتنفها ولم تكن معروفة قبل ذلك، كما يقول الأشهب[4]، وخفّ إلى تلك الحطايا عدد من رجال قبيلة زوية، وكانت تلك القبيلة صادقة في وعدها لإمام الحركة السنوسية، فقامت بأعمال كبيرة لصالح الدعوة الإسلامية، ويبدو أن ابن السنوسي المؤسس عرف قدراتها، فاهتم بها، ويظهر هذا جلياً في حواره مع عقيلة الزوي عند بناء الجغبوب حيث حدثه عن رغبته في بناء زاوية في الكفرة وقال له «مرادنا في كونكم تتولون أمرها» فكان أن أسس زاوية الجوف التي عرفت نسبة إلى ابن السنوسي باسم زاوية الأستاذ[5].

وأنشئت في فترة الإمام المهدي عدة زوايا في منطقة الكفرة منها «التاج» كما ذكرنا، وربيانة، وتازربو، وامتد نشاط الحركة نحو الجنوب، فوصلت إلى مواطن جديدة في السودان الإفريقي، بواسطة الدعاة، وقوافل التجارة، فوصلت دعوة الإسلام إلى بشر جدد، وقبائل وثنية متعطشة إلى دين الفطرة، وهذا التوغل المحمود، والانطلاق الجميل بدعوة الله، كان ابن

(1) المصدر السابق نفسه، ص237.
(2) انظر: المهدي السنوسي، ص71.
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص220.
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص221.
(5) المصدر السابق، ص221.

السنوسي المؤسس قد خطط له منذ عهده الباكر في الدعوة إلى الله فقد قال: «. . . إذ أن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان. . .»[1].

إن انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة ينسجم مع خطة الحركة السنوسية التي استهدفت قبائل الصحراء، وإفريقيا الوسطى بدعوة الإسلام، ولذلك تحرك زعيم الحركة لاختيار مركز متوسط يعينه على تبليغ رسالته وأداء واجبه، أما قول من قال: إنما قام بذلك خوفاً من الأوروبيين الذي أرادوا القبض عليه فباطل؛ لأنه جاء للسودان الغربي ليقود حركة الجهاد ضد أطماع فرنسا خصوصاً والأوروبيين عموماً[2]، وأما قول بعض المؤرخين: إنما اندفع نحو الجنوب خوفاً من السلطات العثمانية[3] فهذا مردود، لأن علاقة الحركة بالدولة كانت قوية، بل إن السنوسية أصبحت من الركائز المهمة في فكرة الجامعة الإسلامية.

إن الإمام السنوسي حرص على أن يتوسط ميداناً يقود به حركة الإسلام في إفريقيا الوسطى، ولذلك اندفع جنوباً، كما أنه حدثت أحداث مهمة جعلته يحرص على القرب منها، من ذلك توغل فرنسا في القارة الإفريقية ومحاولة بسط نفوذها على الإمارات الإسلامية في إفريقية الغربية[4]. كانت الوسائل الأمنية لدى الحركة السنوسية تقوم بجمع المعلومات عن تحركات جواسيس فرنسا التي تحاول معرفة حقيقة قوة الحركة السنوسية، وكان الحدث الذي يشكل خطراً على الحركة السنوسية في تشاد؛ قيام سلطنة رابح في السودان الغربي، فقام الإمام السنوسي بحركته الاستراتيجية، فانتقل إلى الكفرة كخطوة أولى، وعمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداي، التي كانت علاقتها بالحركة السنوسية قوية منذ عهد ابن السنوسي الذي كان على صلة بسلطانها: «ثم ازدادت الروابط بين المهدي وسلطان واداي في المدة التالية حتى طلب يوسف (سلطان واداي) أن يوفد المهدي إلى أبشه أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوباً خاصاً في عاصمته، فأرسل إليه سيدي محمد بن عبد الله السني. . فوطد نفوذ السنوسية في واداي[5].

ولا بد من بيان العمل الجليل التي قامت به قبيلة زوية في مساندة الدعوة والوقوف معها ودعم زعيمها، وقد مدح الشاعر أبو مقرب سيف هذه القبيلة:

زاوية أهل الفخر إن جئت حيهم ... ترى العز في نادي زوية باديا
وأهل الفتى أمضى من السيف عزمه ... وإن كان للضيفان بالبشر باديا
إذا ما دعوا يوماً إلى شن غارة ... رأيت المنايا الحمر تعلو المذاكيا
فكم من جريح قد أباحوا وأجحفوا ... بمال غني لا يخافون عاديا

(1) انظر: السنوسية دين ودولة، ص12.
(2 - 4) انظر: الحركة السنوسية، ص218.
(5) انظر: السنوسية دين ودولة.

فأرشدهم مرشد من حل بينهم فلا زال مهدياً ولا زال هاديا[1]

ثانياً: أحداث أثرت في الإمام الثاني للحركة السنوسية:

مرت ظروف عصيبة بالإمام السنوسي أثناء إقامته بالكفرة أثرت فيه وفي حركته، فقد اشتد مرضه ولزم الفراش وعاوده المرض عدة مرات، واشتد به الألم حتى امتنع عن ملاقاة الناس والجلوس في الصلاة.

وقد جاء في رسالة بعث بها لأخيه قوله: «وقد زال تغير الهواء بلا ضرر ولا عناء، والألم الذي معي تهاون بحمد الله، وقد ظهر النقص في الحبة الأولى؛ لأنها الكبيرة، وقل سيلانها وانجلت الزرقة التي حولها، وكانت قدر دائرة الكف من غير الأصابع... وصرت أقدر على تكلف الجلوس في الصلاة وملاقاة الناس»[2].

وجاء في رسالة أخرى لأخيه بتاريخ 13 ربيع الأول 1313هـ قوله: «أحسست بالألم في الجهة الأخرى وتزايد.. وبعد أن عجزت عن أداء الصلاة قائماً وقاعداً، وصرت أصلي على جنبي راقداً.. وقد تركت الخروج للناس والجمعة، ونرجو الله أن تكون العاقبة خيراً»[3] ثم يظهر أن صحته تحسنت بعد ذلك وقد عرفت ذلك من خلال رسائله التي أرسلها إلى شيخ زاوية الطيلمون محمد علي المحجوب، ومن المصائب التي مرت به وكانت متلاحقة: وفاة أستاذه عمران بن بركة في منتصف سنة 1311هـ، وتوفيت والدته في آخر تلك السنة، ثم لم يلبث شقيقه ومساعده الأول محمد الشريف أن توفي في 27 رمضان 1313هـ[4].

ثالثاً: محمد الشريف شقيق الإمام المهدي:

كان محمد الشريف عالماً ربانياً، ومستشاراً عبقرياً، وكان مشرفاً على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم، ودقة الفهم، والقدرة على التدريس، وتتلمذ على كبار علماء الحركة السنوسية، وتفرغ للطلب والتدريس وساعده على ذلك وجود مكتبة كبيرة احتوت على النشاط الديني، والعلمي والأدبي، وقد تحدث الطيب الأشهب عنها فقال: «ونظمت بالجغبوب مكتبة كانت من مفاخره، إذ أنها تعد في طليعة المكتبات التي لا يمكن للأفراد الإتيان بمثلها، وكانت تضم قسماً كبيراً من المخطوطات النفيسة، ولم يجد الإمام بلداً إسلامياً إلا واستجلب منه الكتب، فمن مصر والحجاز والشام والآستانة وتونس ومراكش، إلى غير ذلك من البلاد الإسلامية الأخرى» وقال الحشائشي عن هذه المكتبة: «أما الكتب الموجودة في خزائنها فقد

(1) انظر: برقة العربية، ص580.

(2 - 3) انظر: المهدي السنوسي، ص68.

(4) انظر: الحركة السنوسية، 224.

نيفت على الثمانية آلاف مجلد، من تفسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه، وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك، ولا يطبع في العالم كتاب باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به..»[1].

لقد كانت الجغبوب محلاً لتخريج القادة وشيوخ الزوايا، ولذلك حرص ابن السنوسي وابنه المهدي على أن يوفروا كافة أسباب النشاط العلمي، وتتلمذ محمد الشريف على الشيوخ والعلماء، ونهل من الكتب الموجودة في المكتبة المباركة حتى وصل إلى درجة عظيمة من الفقه والعلم.

يقول الأستاذ الأشهب: «سمعت هذه الحكاية الآتية من تلميذه والدي، السيد أحمد بن إدريس قال: كنا نحضر على السيد الشريف وكنا ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف ومطولات كتب اللغة، يجلس بكل تواضع، ويضع الكراس الذي بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه، ويقرر ما نحن بصدده، وعندما يمر بمشكلة فقهية أو تاريخية أو لغوية يسرد لنا - رحمه الله - من ذاكرته جميع وجوهها، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاب، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتي به، ثم يوضح الأصح من الأقوال والمتفق عليه، وعندما نقف على أي بيت من الشعر في أي كتاب نقرؤه أو أي موضوع نتناوله يقول لنا: إن هذا البيت من قول فلان المولود سنة كذا، والمتوفى سنة كذا، ويبتدىء في قراءة القصيدة من ذاكرته، إلى أن يقف على البيت الذي كان السبب في إعلامنا بقوة حافظة سيدنا وسلامة ذاكرته»[2].

إن هذا العالم الجليل والحبر العظيم والبحر الزاخر من العلوم كان من أعمدة الحركة العلمية، فبوفاته اهتزت الجغبوب، وتأثر الإمام المهدي بهذا الحدث الجلل، يقول أحمد الشريف عن خبر وفاة والده: «وفي يوم النصف من شوال أتانا رسول خبره فصعب علينا فراقه غاية، وأزعجنا نهاية، ولكن لم نقل إلا ما قاله الصابرون المهتدون: إنا لله وإنا إليه راجعون»[3].

لقد تأثر الإمام المهدي لوفاة أخيه وصبر واحتسب، وبكاه الإخوان السنوسيون في كافة الأقطار، وأبّنَه العلماء والشعراء والخطباء ومن بينهم: أبو سيف مقرب، والسيد السني، وهذه القصائد تدل على مدى النبوغ الأدبي الذي وصل إليه أتباع الحركة السنوسية:

قال الشيخ الشاعر العلامة محمد السني في رثاء محمد الشريف:

هجمت عليّ من الزمان خطوب ... ومصائب منها القلوب تذوب
خطب يئن له الجماد وتنثني ... منه متون العزم وهي صلوب

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص152.
(2) انظر: السنوسي الكبير، ص47.
(3) انظر: أحمد الشريف المخطوط، من 44 إلى 55.

نوب تنوب وحادث زواعج ... ترمي الورى بسهامها فتصيب
جلت وجل بها المصائب وغادرت ... رحب الفؤاد يئن وهو كئيب
لبس الأساء منه الأساء كما اكتسى ... ثوب السواد لأجلها جغبوب
عهدي بربع الخل ملتحف إليها ... مخضرة أرجاء مرغوب
والشمل مجتمع ونشر البين في ... طي وذيل سروره مسحوب
واليوم أصبح مقشعراً نازحاً ... وحشى الطلول لأجلهم مخروب
دارت عليه من الزمان دوائر ... أبدلهن على السرور وثوب
لا در در البين يوم ترحلوا ... وسرت بهم نجب المنون تجوب
وحدا بهم حادي النوى والقلب في ... نار الجوى متقلب مرغوب
سقياً لأيام مضت لما انقضت ... إن البكاء لأجلهم مطلوب
كل الرزايا إن توالت أسليت ... إلا مصابك «يا شريف» صعيب
رزؤية ثكل الفضائل كلها ... ولوقعه وجه الزمان قطوب
تبكيك أبصار لأنك نورها ... وبصائر منكم لها تطيب
ومعاشر أنتم ربيع قلوبهم ... ومعاهد أنتم لها أشبوب
وفرائض ونوافل ومحافل ... ومشارق ومغارب وجنوب
وبكى عليك الجو يقطر دمعه ... وعلاه من أحزانه تثريب
أسفي وتهيامي وحر لواعجي ... وقريح جفني بالدموع سكوب
صبر لأمر قضاه إلهنا ... وعلى الجميع مقدر مكتوب
ناداه إكراماً وتشريفاً له ... فغدا يهرول للنداء ويجيب
في ليلة القدر التي قد فضلت ... عن ألف شهر خصه الترحيب[1]

وأما السيد أبو سيف مقرب فقد قال قصيدة في رثاء محمد الشريف، قال ذلك الشاعر الفحل: إذا أخذت من كل حرف أول بيت يظهر لك هذه الجملة الآتية: سيدي ومولاي السيد محمد الشريف ﷺ[2]: قال الحشائشي: وهذا من أنواع البديع المسمى بالترصيع[3] قال الشاعر رحمه الله:

س سرنا بنعشك خضع الأعناق ... سيراً دوين العدو والأعناق
ي يا خير محمولٍ لأعلى جنة ... ولحورها يلقينه بعناق

(1) انظر: برقة العربية، ص225، 226.
(2) المصدر السابق نفسه، ص224.
(3) انظر: رحلة الحشائشي، ص161.

obeikandl.com

د داء أصاب المكرمات فغالها واغتال روح مكارم الأخلاق
ي يجري على وفق القضا حتماً فلا تبقى مواضيه على الأرماق
و والدهر يعتام الأخاير والردى يعتاد نهب نفائس الأعلاق
م ما ضرّه لو أن صارم صرفه أبقاك للعافين والطراق
و والعلم والحلم الذي شمخت به أفاق جغبوب على الآفاق
ل لكنه لا ينتهي عن قصده بتطبب أو رقية من راق
أ أودى الشريف ابن الشريف محمد من للمعالي بعده من راق؟
ي يا جامعاً أصل العلوم وفرعها جمعاً لمن ناواك غير مطاق
أ أنت الإمام لكل من أم الهدى والدين بالإجماع والأصفاق
ل لك كنز معارف وعوارف تحت الصفائح محكم الإطباق
س سرُّ ثوى في روضة موشية وشي الربا نحبّ الحيا الغيداق
ي يا ثاوياً مع أصله في لحده هذا قران السعد في الأعماق
د دار حوت المكارم والعلا مع فرعه شبت على الأطواق
م يا تلك جنة قد زخرفت ورثت يا مولاي باستحقاق
ح حزت النعيم بها وكنت منعماً والله يمنحك النعيم الباقي
م ما عذر من ينعاك إذا لم يرتشف كأس الردى من دمعه المهراق
د دمع من العين منها مرسل تهمي بذاك قريحة المآق
أ إن قصرت يوماً فإن قلوبنا أسرى لفقدك في أشد وثاق
ل لو كان يفدى الميت بادر كلنا يفدك بالآجال والأرزاق
ش شرفت يا جغبوب حقباً بالذي أعلى منارك بالثناء الباقي
ر روت إليك وجوه آمال الورى عطشاً لورد نواك الدفاق
ي يسعى لأرضك كل جلف مملق فيثاب بالآداب والأرماق
ف فازت رجال باحتلال رياضه ورياضه الخلد النعيم الراقي
ر راضَ الأنام بعلمه وبحلمه فتقدموا في حلبة الأسباق
ض ضار إذا ما ربته في دينه أو رمت نقض العهد والميثاق
ي يا صفة صفوة يا شبل صبراً على ريب الزمان وخطبة الفراق
أ إن المنايا غاية ما دونها من ناصر كلا ولا من واق
لا لا تخطىء الأحيا سهام حتوفها من فاته هذا فذاك يلاقي[1]

(1) انظر: رحلة الحشائشي، ص159، 160.

إن الحركة السنوسية فجرت طاقات الشعراء، وأضفت على شعراء الحركة معانياً في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادىء الدعوة، وكونت أدباً رفيعاً خاصاً بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل، وخصوصاً إذا علمنا أن الشعر لم يكن صفتهم الأولى، وإنما كان أمراً لاحقاً، وشيئاً ثانوياً بالقياس إلى صفتهم الأصيلة، وهي كونهم علماء دعاة، اتجهوا في حياتهم إلى نشر العلم بين ذويهم وتهذيب النفوس وإحياء الشعور الديني، وإصلاح المجتمع بهذه الوسيلة، ثم كانوا مع هذا يتمتعون بالموهبة الأدبية، على أقدار مختلفة[1].

إن القصائد السابقة تساعد على تصور الأجواء التي كانت إثر وفاة محمد الشريف ﷺ، وبذلك يستطيع أن يصل إلى تأثير الوفاة على الإمام المهدي وإخوانه في الحركة.

وبعد أسابيع قليلة من وفاة السيد الشريف أرسل السيد المهدي في طلب العائلة من الجغبوب إلى الكفرة، فسافر محمد عابد وأفراد بيت والده مصحوباً بالسيد أحمد الريفي، وأبي سيف مقرب، وبهذا الانتقال لم يبق من أفراد البيت السنوسي أحد بالجغبوب[2].

وفي عام 1314هـ جاء جلة أعيان برقة، ورؤساء القبائل لزيارة الإمام المهدي ليقدموا لسيادته أحر التعازي في وفاة أخيه[3] ويتدارسوا آخر تطورات الأوضاع الدولية والمحلية، والإقليمية.

رابعاً: رحلة الإمام المهدي إلى السودان الغربي، والصدام مع فرنسا، ووفاته:

كان الإمام المهدي يرسل البعثات الاستكشافية في الصحراء، ويحفر الآبار، ويتفقد الطرق الموصلة إلى وسط السودان الغربي، وكانت تلك الاستعدادات تجري على قدم وساق، في جو من الكتمان الشديد، وبعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد[4]. وقد غادر المهدي الكفرة ورافقه أفراد أسرته، وكبار الإخوان، وشيوخ الزوايا، وأعيان القبائل، وكان ذلك في أواخر جماد الثاني عام 1317هـ[5] وكان عدد رفقائه من الرجال 1066 رجلاً، وهم الإخوان وشيوخ القبائل والحاشية الخاصة والخدم[6]، واستغرقت المدة بين الكفرة وقرو السودان الغربي شهرين تقريباً[7]،

(1) انظر: انظر: دراسات وصور، ص326.
(2) انظر: برقة العربية، ص227.
(3) المصدر السابق نفسه، ص231.
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص225، 228.
(5) المصدر السابق نفسه، ص239.
(6) انظر: برقة العربية، ص239.
(7) المصدر السابق نفسه، ص239.

وبمجرد وصول الإمام إلى قرو وحط رحاله هناك أخذ ينشر دعوته الإسلامية الدينية، وأخذت شعوب تلك المناطق تدخل في دعوة الإسلام طوعاً، وتنضوي تحت زعامة الحركة السنوسية مختارة، وكانت فرنسا تراقب تحركات الحركة السنوسية، وتستعد لمعركة فاصلة معها، وخصوصاً بعد أن استطاعت القضاء على مملكة رابح الزبير وهزمته في معركة لختة، ثم تم قتله في عام 1900م وخضعت لهم سلطنته وباتوا يهددون كانم[1] وكان زعيمها قد: «أرسل محمد البراني إلى كانم فبنى زاوية في بير العلالي، وطفق يجمع جيوشاً من قبائل التبو، والطوارق وأولاد سليمان، والزوية، والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسي»[2].

تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم فوضعوا حامية كبيرة في بير العلالي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني الساعدي، فارتدت الحملة الفرنسية خائبة بعد أن تركت ميدان المعركة زاخراً بأشلاء الموتى، والجرحى، والمعدات، واستشهد عدد غير قليل من بينهم الشيخ عبدالله بن موسى فريطيس، ووصل الخبر إلى الإمام المهدي، فأرسل من عنده نجدة لمعاونة المجاهدين، واستأنف الفرنسيون زحفهم مرة أخرى، وكان عدد شهداء المعركة الثانية مائة شهيد، من بينهم كل من الشيوخ: غيث سيف النصر، أبو بكر قويطين، يونس بدر، السنوسي خير الله وشقيقه عبدالله، وغيرهم، وقد بلغ عدد الأموات من الفرنسيين مائتين وثمانين منهم خمسة وعشرون ضابطاً، وفي اليوم التالي من هذه المعركة زحف الفرنسيون بعدد كبير من الجيش تعززه قوات احتياطية، فاشتبكت مع المجاهدين في معركة حامية الوطيس نتج عنها انسحاب المجاهدين، واحتلال القوات المعادية لمركز (علالي)، وفي هذه الأثناء وصلت نجدة من المجاهدين يقودها محمد عقيلة، واحتكت بالفرنسيين في مركز لهم أقاموه خارج «علالي»، فالتحمت هناك معركة دامية، أسفرت عن احتلال المقر الفرنسي، والاستيلاء على جميع ما حواه، وفر عدد قليل من الفرنسيين إلى «علالي»، ثم قرر القائد السنوسي الزحف على مركز «علالي» وحاول بعض المجاهدين إقناعه ليكون زحفهم بعد تريث، غير أن القائد صمم على تحرير «علالي» من القوات الفرنسية أو أن يسكن «علالي» غرف الجنة، وتم الهجوم بروح جهادية عالية، واستشهد القائد السنوسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافاً مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي[3]، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص229.
(2) المصدر السابق نفسه، ص229.
(3) انظر: المهدي السنوسي، ص73.

في يوم الأحد 24 صفر 1320هـ الموافق 2 يونيو 1902م، في زاوية قرو، واقترح أحمد الريفي نقل جثمان المهدي إلى الكفرة فتم ذلك ودفن في زاوية التاج[1].

لقد كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي، أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين العائلات، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعمله وآرائه وتدبيره، عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام[2] وكان عفيفاً، يحترز من المال العام، فعلى سبيل المثال وصل إلى الجغبوب حاكم برقة العثماني الفريق رشيد باشا، وحل بطبيعة الحال ضيفاً مكرماً على الإمام المهدي، فعومل هذا الضيف بالإكرام والاحترام والتقدير، ولم يتناول مع محمد المهدي الطعام إلا مرتين اثنتين، ومرد ذلك إلى أن موارد الجغبوب التي ينفق منها كانت من الأوقاف الإسلامية، والصدقات والزكاة الشرعية، والهبات التي خصصها المتبرعون بها لتنفق على أوجه البر والإحسان، ثم ما احتسب للمشاريع الإصلاحية والإنشاء والتعمير، وللإنفاق على المشاريع، وعلى طلاب العلم، والضيوف وعابري السبيل، والمعسرين، وبطبيعة الحال إن دار الضيافة - وهي أحد هذه المشاريع - هي التي تقوم بإكرام ضيف الجغبوب الكبير، وكان المهدي السنوسي يتحاشى أن يصل إليه شيء من ذلك، وهكذا لا يمكنه - على ما يظهر - أن يتناول من الأطعمة التي تعد لرشيد باشا، وإزاء هذه الحالة أقام مأدبتين من ماله الخاص لضيف الجغبوب المحترم، وتناول معه الطعام، لقد كان المهدي السنوسي ينفق من موارد خاصة، مصدرها الزراعة، وتنمية الماشية، بزاويتي القصور ودفنة، ومن هذه الموارد كان مأكله وملبسه[3].

لقد اتصف الإمام المهدي السنوسي بصفات المؤمن ألا وهي: «قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، ينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، لا يبخل ولا يبذر، ولا يسرف، ولا يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء»[4] فرحمة الله على

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص173.
(2) انظر: المهدي السنوسي، ص82.
(3) انظر: المهدي السنوسي، ص79.
(4) المصدر السابق نفسه، ص84، 85.

المهدي، لقد اهتز العالم الإسلامي لخبر وفاة المهدي، وكتبت الصحف والمجلات الغربية والشرقية حول وفاة هذا الزعيم الإسلامي، وتولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف، فقام بتوجيه رسالة إلى شيوخ الزوايا نعى فيها عمه المهدي، وهذا نصها:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 1، 2]، ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83] وبعد فإنه من عبد ربه سبحانه أحمد ابن السيد محمد الشريف ابن السيد محمد السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني إلى الأجل الأبر الصفي الأنور سيدي الشيخ... «ويكتب اسم شيخ الزاوية المرسل إليه الكتاب» سلمه الله آمين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته والموجب لهذا السؤال عن الأحوال لا زالت محفوفة بالتكريم، والإجلال وإن سألتم عنا فإننا ولله الحمد تحت مجاري الأقدار ساكنون، وفي قبضة من يقول للشيء كن فيكون، ولنفحات المولى جل وعلا معترضون، وبما حكم به سبحانه وتعالى راضون، وعن جميع ما لا يرضى الخالق بحوله وقوته معرضون، وبما وعدنا به الصابرون والقائلون عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، آجرنا الله وآجركم في مصيبتنا ومصيبتكم بالأستاذ الذي طالما رشد الخلق، وإلى طريق الحق يهدي، سيدنا محمد ابن المهدي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه، ونفعنا بأسراره وأسرار آبائه وجعلنا من المفلحين الذين هم حزب الله من أوليائه وأصفيائه فقد نقله من الدنيا إلى الآخرة التي هي خير، في منتصف نهار يوم الأحد الثالث والعشرين من صفر الخير، من سنة عشرين وثلاثمائة وألف، ضاعفْ الله له الخيرات وضاعف الضعوف ألوف ضعف وسقى بشآبيب الرحمة تربته، وأسكنه مع الذين أنعم الله عليهم جنته إنه جواد كريم بر رحيم، ومنا جزيل السلام إلى جميع الإخوان والمحبين ومن عندنا سلم عليكم صنونا السيد محمد عابد، والسيد محمد إدريس، وكافة الأنجال والإخوان والسلام»[1].

تاريخ 7 ربيع الأول 1320هـ

وهكذا انتقل السيد المهدي إلى رحمة الله وهو لم يبلغ الستين من عمره، استطاع خلالها أن يتوسع في ميادين الدعوة، مقتفياً في ذلك منهج والده، ومات وهو في طريقه نحو ساحات الوغى، وألهب مشاعر أتباعه، ودفعهم نحو حب الجهاد، وورث القيادة لجيل آخر استطاع أن يقارع فرنسا، وإيطاليا، وإنجلترا بقيادة أحمد الشريف.

وأختم حياة الإمام المهدي بهذه القصيدة الرائعة التي تدل على الطاقات الكامنة في شعبنا

(1) انظر: مجموعة الشيخ منصور المحجوب، نقلاً عن الحركة السنوسية، ص232.

المسلم «الليبي» وقد جاءت هذه القصيدة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية والدينية والعملية والنظامية وهكذا، فالإسلام دين ودولة، وسيف ومصحف. قال الشاعر الكبير رفيق المهدوي:

السيد (المهدي) أعظم مصلح ... بعد الأئمة قام بالإصلاحِ
إصلاحه الدين الصحيح منزه ... عن جذبة المتصوف السباح
صان العقائد من خرافات ومن ... بدع ومن متناقض الشراح
ما كان إلا بالشريعة عاملاً ... بالعلم في نهجه تقى وسماح
متقيلاً أخلاق والده الذي ... بدأ الجهاد بهمة وكفاح
(ابن السنوسي) الذي آثاره ... تغني عن الإطراء والأمداح
كالشمس لا تحتاج برهاناً ولا ... يحتاج مبصرها إلى استيضاح
والشمس إن جهل الكفيف ضياءها ... عرف الحرارة في الشعاع الضاحي
والمسك يعرف دون رؤيته إذا ... سطع الشذا من عرفه الفواح
والفرع ينزع للأصول نجابة ... إن الوشيج يجود بالأرماح
والنوع يبقى بعد طول تقلب ... في حبة فتجيء بالأدواح
آل الرسول وإن تطاول عهدهم ... ما زال سر العرق في الأقحاح
كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح
ليست لدروشة المريد وجذبه ... بالدفء أو بالرقص أو بصياح
كانت معالمه كسيرة جده ... إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية ... للخير، منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في ... أعماله ما كللت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع ... للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه ... في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى ... بل ما نوى في السعي من إصلاح
فإذا استوى عمل وحسن عقيدة ... كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيدة لا يصح يقينها ... إلا بفعل ظاهر وصراح
فإذا أحب الله باطن عبده ... ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح ... مال العباد إليه بالأرواح
هذي صفات السيد «المهدي» ولا ... والله ما بالغت في الإيضاح
فله من الخدمات للإسلام ما ... يعلو على متناول الشراح

يكفيه نشر الدين في الآلاف من ... أقصى حدود «الشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل ... صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة ... الإسلام بعد عبادة الأشباح
وكفاه نشراً للعلوم بناؤه ... لمعاقل مثل الحصون فساح
تلك الزوايا القائمات كأنها ... للمدلج الساري ضياء صباح
كانت مناراً للعلوم وملجئاً ... للمحتمين ومورد الممتاح
لتلاوة القرآن في عرصاتها ... كدوي ثول في الأجباع
ولدارس التوحيد في أرجائها ... هدى ينير إنارة المصباح
ولنهضة العمران كان بذاته ... يلقي دروس الحرث للفلاح
ويدرب الفرسان معتمداً على ... فن بأحدث عدة وسلاح
ويوحد الأهداف بين قبائل ... كانت فلولاً عداوة وتلاحي
هذي كرامات الإمام السيد ... المهدي للإيمان والإصلاح
للدين والدنيا وللأولى ولِلْـ ... أخرى وللأبدان والأرواح
لا كالكرامات التي يروونها ... كعجائب الفقراء غير صحاح
أو كالتصوف عند قوم أظهروا ... بلهاً بلبس الصوف والأمساح
فكرامة الإصلاح بالخير الذي ... للناس فوق كرامة الصلاح
ماذا أقول ولا أريد زيادة ... عن مدح من سبقوا من المداح
سبقوا وما بلغوا سمو شواردي ... إلا مثابة ريشة بجناحي
في مدح من فاق الملوك مكانة ... بجلال وصف سميدع جحجاح
كانت تهاديه الملوك فيعتلي ... متعففاً برزانة ورجاح
ورعاً وزهداً في حطام عاجل ... وتحفظاً من جائز ومباح
بلغ الكمال المستطاع لمنتهى ... أفق لقرب الأنبياء متاح
لا أدعي أني أحاول وصفه ... بإطالة الإطناب والإلحاح
لكنني أخلصت مدحي موقناً ... بالحق في جد بغير مزاح
وأشدتُ بالذكر الذي لا يمترى ... في صدقه متبجح أو لاحِ
لا أبتغي مالاً ولا جاهاً ولا ... زلفى تقربني إلى مناح
حسبي قد استغنيت بالإيمان عن ... كل العباد بفالق الإصباح
وأردت عند الله في ذاك الجزا ... وبحسن ظني في السول نجاحي
وبالانتساب إلى النبي وآله ... أرجو مفازي في غد بفلاح
ومن التفاؤل أن نسبة «مهدوي» ... جاءت من «المهدي» عن الشراح

إنـي أقـر بـأنـنـي أسـرفـت فـي — دنيـا الـمـعـاصـي راكـبـاً لـجـمـاحـي
مـالـي أمـام الله غـيـر سـريـرة — بـيـضـاء يـوم الـمـحـشـر الـفـضـاح
ولـقـولـه لا تـقـنـطـوا مـن رحـمـتـي — ألـقـى الإلـه بـخـاطـر مـرتـاح
مـالـي سـوى صـدق الـيـقـيـن مـؤمـلاً — حسـن الـخـتـام عـلـى هـدى وصـلاح[1]

(1) انظر: المهدي السنوسي، ص11، 12، 13.